ذكي خيري



الحرب العراقية - الايرانية

قضايا الدفاع عن الوطن والثورة

ذكي خيري

الحرب العراقية - الايرانية

قضايا الدفاع عن الوطن والثورة

تقديم

تدور رحى الحرب العراقية الايرانية في عامها السابع على التوالي وقد بدأت بغزو العراق لايران في ٢٢/ أيلول/ ١٩٨٠. وانتهى الطور الأول من الحرب بكارثة المحمرة التي حلت بالجيش العراقي في ربيع ١٩٨٢ وابتدأ الطور الثاني بغزو ايران للعراق في تموز /١٩٨٢ ولا يزال مستمراً للسنة الخامسة على التوالي، ويهدد استقلال العراق وامن المنطقة والسلم بخطر داهم.

« إن الحروب لامر شديد الاختلاط وغاية في التنوع والتعقيد ولا يجوز معالجتها بصيغة جامدة عامة » (لينين) (٢ ـ ص ١٠٢).

فليس هناك وصفة عامة تعالج جميع الحروب على السواء، فلا بد من دراسة خاصة لكل حرب بعينها تتناول الهوية الاجتماعية للاطراف المتحاربة واهدافها وتأثير هذه الحرب على الوضع الدولي إلى جانب قضايا ملموسة أخرى. وهذا ما دفع كاتب السطور إلى تقديم هذه المداخلة. وقد شجعته المناقشة التي افتتحتها مجلة « الثقافة الجديدة » (اصدار الحزب الشيوعي العراقي) في عددها المزدوج (ايلول / تشرين أول ١٩٨٦ العدد ١٧٧/١٧٨) تحت عنوان « ملف الحرب » وهذا هو المرجع رقم (١) في

قائمة مراجع هذا البحث ، والتي سنشير إليها بارقامها مع رقم الصفحة بين هلالين في سياق البحث ونرجو القارىء أن يرجع إلى قائمة المراجع في نهاية الكراس .

والشيء المشترك في الملف هو معارضة شعار « الدفاع عن الوطن » واسبقية شعار « انهاء الحرب » على شعار « اسقاط الدكتاتورية » أو العكس وقد عكست المداخلة بعنوان « مناقشة لآراء في طابع الحرب ومسألة انهاء الحرب والدفاع عن الوطن » بقلم فالح عبد الجبار التشوش الفكري والسياسي السائد في صف المعارضة العراقية بصدد الموقف من الحرب ولخصت ما جاء في المداخلات الأخرى ، ولذا نتمنى على القارىء أن يبدأ بقراءة هذه المداخلة الرئيسة قبل أن يقرأ هذا البحث . ومن الجدير بالذكر أن كاتب المداخلة هذه يستشهد بلينين ثماني مرات ولكن بلا تضبيط ولا توثيق كالإشارة إلى عنوان الكتاب ورقم الصفحة أو الاقتباس المباشر بين قويسات « . » ولا نعتقد أن محرراً آخر يسمح لنفسه بمثل هذه الحرية في قضية خطيرة كهذه يدور حولها مثل هذا الخلاف الجدّي. وعلى هذا الاساس يعطي تعاريفه الخاصة لمفهوم الوطن والدفاع عن الوطن ، وتغير طابع الحرب. ويصدر احكاماً عامة مطلقة مجردة على دعاة الدفاع « المجرد » أو « الصرف » حسب تعابيره دون أن تنشر وجهة نظرهم في الملف أو أن يقتبس منهم اقتباساً مباشراً مضبطاً وموثقاً أي يرشد القارىء إلى أي مرجع ، ليتيح له فرصة المقارنة والمحاكمة ويساعده على التوصل بنفسه إلى الحقيقة. وكأن الهدف هو ادانة مفهوم الدفاع عن الوطن على العموم وعزله وعزل دعاته مهما كلف الأمر ، اعتماداً على الثقة التي تتمتع بها المجلة لدى قرائها .

إن هذا الاسلوب في الجدال اسلوب تلقيني ثبت عقمه في تربية

الكوادر الثورية. ولذا فإن الرفيق غورباتشوف في كلمته التي القاها في مؤتمر أهل الثقافة المنعقد في موسكو في خريف ١٩٨٦ أكد على أن اسلوب الحوار وليس التلقين هو الاسلوب المجدي في تربية الكوادر الجديدة وفي الوصول إلى الحقيقة.

إن القيمة الايجابية للملف تكمن في انه يتيح لأول مرة مناقشة المفاهيم الانعزالية السائدة في صف المعارضة بصدد الموقف من قضية الدفاع عن الوطن كما هي بالضبط وهذا عمل يستحق الشكر بالرغم من عرض وجهات نظر انصار الدفاع عن الوطن بالصُورة السلبية آنفة الذكر.

وقد إعتمدنا على التقرير السياسي للمؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي بصدد تغيير طابع الحرب العراقية الايرانية فقد ادان إصرار ايران (على مواصلة الحرب واحتلالها الأراضي العراقية واعلانها عن عزمها على فرض البديل الذي تريده للحكم القائم على الضد من إرادة شعبنا وقواه واحزابه الوطنية (٨ ـ ص ٨١) وهذا يعني، بحد ذاته، أن من حق الشعب العراقي الدفاع بالسلاح عن حقه في تقرير مصيره بنفسه بصرف النظر عن النظام القائم فيه الآن. وعليه فإن المؤتمر نفسه هو الذي وضع الحيثيات الملزمة للدفاع العادل عن الوطن. وموضوعة «الدفاع عن الوطن» هي بطبيعة الحال الموضوعة المركزية في هذا الكتاب ـ بارتباطها الديالكتيكي مع ثورة الشعب.

ومن المهم في هذا البحث المناقشة النظرية والسياسية لحرب تدور بين دولتين وطنيتين من مجموعة حركة عدم الانحياز وتشغلها عن النضال ضد الامبريالية. ولا يمكن لمثل هذه الحرب إلا أن تخدم الامبريالية والصهيونية بصرف النظر عن نوايا الاطراف المتحاربة وانظمة الحكم فيها ولا بد

للصهيونية والامبريالية من أن تشجع قيام مثل هذه الحروب واستمرارها لاطول مدة ممكنة.

ويعالج الكتاب العلاقة المعقدة، غاية التعقيد بين الحرب والثورة ولا سيما بين الحرب الوطنية التحررية وبين الثورة، وكيف تؤثر هذه العلاقة على استراتيجية الطبقة العاملة وتاكتيكها وتغيرهما تغييراً جذرياً ما دامت الحرب دائرة الرحى، وطبقاً لتغيير مواقع الطبقات وإعادة توزع قواها وموقفها من الحرب ومن بعضها بعضا.

وفي هذا الصدد تكتسب أهمية استثنائية قضية العلاقة بين الحرب الاهلية أو «الكفاح المسلح» والحرب الوطنية العادلة وقد عالجها الكراس بعناية وعلى ضوء مقولة لينين «الحرب محرك تاريخي خارق القوة». تناول الكراس التطورات التي طرأت على الوضع الاجتماعي في العراق تحت تأثير الحرب المباشر وعلاقتها الوثيقة في تسريع نضوج ثورة الشعب.

وركز الكتاب بطبيعة الحال على الشعار الاستراتيجي الأول: «انهاء الحرب فوراً بصلح عادل...» كما عالج تحول طبيعة الحرب بين طورها الأول ايلول ١٩٨٠ - حزيران ١٩٨٢ وطورها الثاني، منذ تموز ١٩٨٢. والمعيار في هذا التحول هو عدالة الحرب، أو عدم عدالتها بالنسبة لكل طرف من الطرفين المتحاربين، اعتماداً على مجموعة لينين (الحروب العادلة والحروب غير العادلة) (المرجع رقم - ٢ -) وهي كنز من كنوز الماركسية - اللينينية لا يقدر بثمن، ولا غنى عنه في دراسة أي حرب.

ولعل أهم ما تناوله هذا البحث هو كيفية معالجة التشوش السائد في صف المعارضة بصدد الموقف من الدفاع عن الوطن ومن انتهاء الحرب

وحتى مما يعنيه « انهاء الحرب » أهو التفاوض بين الطرفين لعقد صلح عادل بينهما أم القاء السلاح من جانب واحد هو العراق؟ إن وراء التشوش السائد في صفوف المعارضة العراقية عوامل ايديولوجية ـ نظرية وسياسية وحتى سايكولوجية أيضاً ، المزاج السائد لدى المعارضة إزاء رأس النظام القائم في العراق الان المزاج الذي من شأنه حجب الرؤية السياسية .

ويشخص البحث بصورة خاصة الميول الانعزالية اليسارية والمغالاة الثوروية باعتبارها الخطر الرئيسي في حركتنا في يومنا هذا . ويتمم ما جاء في كراس فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي ومنظره بصدد الانتهازية « حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية » الذي كتب قبل ٤٣ سنة عندما انتصر الحزب على التكتلية الانتهازية وثبت كيانه ، ولا مخرج لحركتنا من ازمتها اليوم إلا بالنضال بلا هوادة ضد الانعزالية والانتهازية بكل اشكالها ولا سيما اليسارية التي هي الآن الخطر الرئيس ، وهو قبل كل شيء نضال ايديولوجي ضد الثورية البرجوازية الصغيرة .

إن المناقشة الهادفة وبرحابة صدر هي الشرط الأول في هذا النضال التاريخي المصيري وليس لهذا الكتاب من هدف إلا تنشيط الحوار الهادف ، مستوفي الجانبين ، وليس وحيد الجانب . النقاش الذي يعيد للحزب وحدته الايديولوجية والسياسية على أساس التفكير الاممي الجديد والذي يعيد إليه ثقة اوسع الجماهير الوطنية المدافعة عن أرض الوطن ومستقبله الديموقراطي وعن الامة العربية والسلام العالمي ـ والحوار الذي يعزز ثقة المناضلين بحزبهم ، الثقة الثورية التي لا يعيش بدونها حزب ثوري . فلنناقش خلافاتنا على أساس العلانية والديمقراطية كما علمنا لينين .

٢٥ نيسان ١٩٨٧ المؤلف

الفصل الأول

الحرب العراقية الايرانية
الخلفية التاريخية والدولية

١ ـ الخلفية التاريخية للحرب

تعرف الحرب العراقية الايرانية أيضاً « بحرب الخليج » لأنها نشبت بين أقوى دولتين خليجيتين ولأن في مقدمة اغراضها هيمنة المنتصر على الخليج الذي هو الآن في الواقع كناية عن المصالح البترولية الضخمة للدول الامبريالية من جهة وأحد المحاور الاستراتيجية الحساسة للامبريالية الأمريكية. في مخططاتها الكروية الشاملة من جهة أخرى. ولكن يجب أن نعود قليلاً إلى الوراء للالمام بالخلفية التاريخية للحرب، أي إلى انتهاء الحرب العالمية الثانية وانهيار الفاشية الدولية، وقيام المنظومة الاشتراكية العالمية، وانهيار النظام الكولونيالي، وقيام لنحو ١٠٠ دولة مستقلة جديدة مكانه، وتأليف مجموعة دول عدم الانحياز التي ينتمي إليها الان الطرفان المتحاربان: العراق وايران. فكان من معالم انهيار النظام الكولونيالي القديم انحلال الامبراطورية البريطانية، أكبر امبراطورية عرفها التاريخ وضعف مركز بريطانيا نفسها إقتصادياً وعسكرياً وسياسياً بحيث اضطرت إلى تصفية ما يسمى باستراتيجية شرقي السويس، أي وجودها العسكري في

آسيا والمحيط الهندي بتصفية قواعدها العسكرية في المنطقة. وبعد ثورة ١٤/ تموز /١٩٥٨ في العراق حصل « فراغ » في الخليج. ولم تكن امريكا بعد مستعدة لملء الفراغ مباشرة وكانت ايران أول المدعين بخلافة بريطانيا هنا، وهي أكبر دول الخليج. ولم يكن امامها متحد آخر يؤبه له إلا العراق بعد أن تخلص من الهيمنة الامبريالية وحلف بغداد الذي كان يربط العراق وايران وتركيا والباكستان ببريطانيا ومن ورائها امريكا. واعتمدت الاستراتيجية الامريكية لتطويق الاتحاد السوفييتي بالقواعد العسكرية على تركيا وايران ولا سيما الأخيرة لانها تتميز بسعة حدودها الحساسة مع قلب الاتحاد السوفييتي وبثرواتها الغزيرة ولا سيما النفط، فاختارتها امريكا لتجعل منها قوة صناعية عسكرية رأسمالية متطورة، كقاعدة للتطور الرأسمالي في غربي آسيا، شأن البرازيل في امريكا اللاتينية. وما لبثت ايران أن أصبحت أكبر مصدر للنفط بعد السعودية. وفي تقرير لمجلة (الايكونوميست اللندنية) جاء: « اجلت المملكة المتحدة (بريطانيا) قواتها العسكرية من الخليج رسمياً في عام ١٩٧١. وقبل ذلك اكدت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بشكل واضح جداً أن ايران قد تم تعيينها الوسيط العسكري الجديد في الخليج، وحامي الدول العربية الصغيرة. ومعقل المصالح الايرانية ـ الغربية في المنطقة. وتم تخصيص موارد مالية كبيرة فورية لتطوير القوات المسلحة في ايران وتطوير البنية الاساسية التي تتطلبها هذه القوات وذلك لطمأنة الدولة المهيمنة في الخليج » (١٢ ـ ص ١٢).

وقد تبجح الشاه الميت قبل خلعه بقليل بأن القوة العسكرية الايرانية اصبحت لا تقهر إلا بالسلاح النووي. ومهما كانت المبالغة في هذا القول فقد اصبحت ايران فعلا قوة عسكرية كبيرة يعتد بها بالنسبة لدول غربي

آسيا. واصبحت لدى ايران وبنفس الدرجة قاعدة صناعية أيضاً. وكانت اطماع ايران وطموحها للتوسع والهيمنة وتعاونها مع إسرائيل اموراً غير خافية. وكان افلات العراق من حلف المعاهدة المركزية CENTO بعد ثورة ١٤/ تموز بداية مرحلة جديدة في الصراع بينه وبين ايران على الهيمنة على الخليج. واحتلت طهران محل بغداد كمركز للحلف العدواني وتسارعت وتيرة تسليح ايران باسلحة الدول الامبرالية ولا سيما الامريكية في حين اعتمد العراق في تقوية دفاعه على السلاح السوفييتي بالأساس. وعمد الشاه إلى اضعاف منافسه العراق حتى بالوسائل ذات الحدين كتقديم التسهيلات للانتفاضة الكردية المسلحة ضد حكومة بغداد، أياً كانت هذه الحكومة وحتى آذار ١٩٧٥: ويقول التقرير الآنف ذكره بهذا الصدد: (ففي الواقع نقلت ايران القتال إلى المناطق الكردية.. وفي هذه الاثناء (آذار ١٩٧٤) وصل دعم ايران للاكراد العراقيين إلى اقصى مداه ولغاية مارس (آذار) ١٩٧٥ عندما التقى الشاه بنائب الرئيس العراقي صدام حسين في الجزائر. كان نمط النزاع قد اصبح ممتزجاً بالحرب الكردية. ومن الملفت للنظر أن الاستراتيجية الايرانية المتمثلة في الضغوط العسكرية على الحدود مع العراق والدعم الايراني الانتقائي للاكراد المنادين بالحكم الذاتي في العراق كانت ناجحة للغاية. وقد تلهى العراق على الحدود بينما كانت الحكومة الايرانية ماضية في بناء قواعد بحرية والحصول على معدات بحرية ثقيلة وانشاء آلة عسكرية ضخمة تدعم بها ادعاءها بالسيطرة على الخليج ومداخله المطلة على المحيط الهندي. وقد انشغل العراق بالمناطق الكردية بشكل كبير بحيث لم يقم بأي خطوات مضادة لتلك الخطوات الايرانية في الخليج. وهكذا تحققت السيطرة الايرانية فعلاً بدون أية مقاومة جادة من العراق (١٢-١٨).

وتنازل صدام حسين لا للاكراد بل للشاه في اتفاقية الجزائر (٦/ آذار / ١٩٧٥ تنازل عن شطر من شط العرب لايران بتعيين الحدود الجديدة طبقاً للخط الملاحي العميق في النهر ، مقابل تعاون الشاه في قطع الامدادات عن حركة البارزاني التي كانت لا تزال في عنفوان قوتها ، وتضم ١٢٠,٠٠٠ مسلح ، فانهارت الحركة بين عشية وضحاها بكل معنى الكلمة وقد تسنى لكاتب هذه السطور أن يسمع تقويماً لهذا الحدث التاريخي من فم أحد ابناء البارزاني الاحياء : لم نعتمد على اصدقاء الشعب الكردي الحقيقيين: الشعب العراقي والحزب الشيوعي العراقي في الداخل والاتحاد السوفييتي في الخارج ، بل اعتمدنا على قوى أخرى كانت على استعداد لبيعنا ببرميل نفط.. ولكن هذا الدرس التاريخي البالغ الدلالة قد نسي الآن تماماً من قبل الزعماء الاكراد القوميين إذ آثروا التعاون على المكشوف مع العدو.

لم يخسر الشاه شيئاً في صفقة الجزائر فقد دفع الثمن الحلفاء الوقتيون الإكراد ، الاعداء الكامنون ، لقاء حصوله على السيادة على الشطر المحاذي للاراضي الايرانية من شط العرب. وكان الشاه قلقاً آنذاك من ارهاصات الثورة الايرانية التي اطاحت بنظامه بعد أربع سنوات.

واستثمر صدام حسين انهيار المعارضة الكردية المسلحة لتوطيد نظام الحزب الواحد والتخلص من « الحلفاء الوقتيين ».وعلى وجه التعيين من الحزب الشيوعي العراقي ليسترضي الامبريالية والرجعية العربية ولاستثمار التدفق الهائل في عوائد النفط في السباق الاستراتيجي مع ايران. واتجه في السياسة الخارجية اتجاهاً جديداً منتقلاً من صيغة « التحالف الاستراتيجي » مع الاتحاد السوفييتي إلى صيغة « ابعاد المنطقة عن النزاعات الدولية » أي المعادلة بين القوتين العظميين » (٨ ـ ص ٧٣).

وبدأ التقرب من دول الخليج والاردن والابتعاد عن دول الصمود والتصدي: ـ سوريا، ليبيا، الجزائر، اليمن الديمقراطية. وتصاعدت إلى الذروة طموحاته في التوسع والهيمنة على الخليج.

وفي خريف ١٩٧٨ وقع حدثان هامان: اتفاقية الوحدة العراقية ـ السورية وقمة بغداد للدول العربية بعد حملة ارهابية فاشية واسعة ضد الحزب الشيوعي العراقي بدأت باعدام ٣١ مناضلاً في أيار ١٩٧٨ وشكلت اتفاقية الوحدة مع سوريا انتصاراً لزمرة الرئيس السابق أحمد حسن البكر على زمرة صدام حسين. وفي جوها المتفائل انعقدت القمة العربية ضد اتفاقيات كمب ديفيد وكانت قمة الانتصارات التي احرزها حكم البعث وآخرها فقد نجحت في عزل نظام السادات في مصر. بيد أن الصراع احتدم بين الزمرتين مباشرة وأدى إلى احباط اتفاق الوحدة مع سوريا وإلى تنحي البكر عن رئاسة الدولة وحزب البعث واستيلاء صدام حسين على الرئاسة وتصفية زمرة البكر القيادية باستثناء البكر تصفية جسدية. ولم يعد صدام حسين «الرجل القوي» من وراء الستار بل غدا على المكشوف الدكتاتور الفرد غير المنازع والقائد الأوحد.

وخلال تلك الفترة نضجت الثورة الايرانية وانتصرت بسقوط الشاه في ١١/ شباط/١٩٧٩ وسارت الأمور في ايران في اتجاه احتدام النضال ضد امريكا وعملائها في ايران والصراع على السلطة بين القيادة الدينية السلفية من جهة والبرجوازية الليبرالية وحلفائها من اليساريين من جهة أخرى. وأدت الثورة إلى تخلخل القوات المسلحة وتركت جماهير واسعة من الجنود الخدمة العسكرية. وتحركت القوميات المضطهدة ولا سيما الاكراد والتركمان مطالبة بحقوقها القومية.

وفي عام ١٩٨٠ بلغت التناقضات بين امريكا وايران ذروتها ولا سيما بعد فشل امريكا في انقاذ الرهائن وتفاقم رعب امراء الخليج من تصدير الثورة الايرانية.

٢ ـ المرحلة الأولى من الحرب

كانت جميع الاجواء الدولية والداخلية والايرانية مهيأة بنظر صدام حسين لانزال ضربته لتركيع ايران وانهاء سيطرتها على الخليج. وقد قدم له الجانب الايراني المبررات المطلوبة ولا سيما الدعوة (لتصدير الثورة الاسلامية) إلى العراق ودول الخليج والخ.. واستمرت المناوشات على الحدود متواترة لعدة اشهر. وفي الاسبوع الثالث من أيلول الغى العراق من جانب واحد اتفاقية الجزائر مع ايران وفي ٢٢/ ايلول/ ١٩٨٠ غزت ٧ أو ٨ فرق عراقية الاراضي الايرانية على جبهة طولها ٨٠٠ كلم بين قصر شيرين وعبدان. وكانت آمال صدام حسين في تحقيق الانتصار معلقة بسحر (الضربة الأولى) الذي غالباً ما اغوى المغامرين العسكريين. ورغم تقهقر الجيش الايراني إلى مسافة تتراوح بين ١٠٠ ـ ١٥٠ كلم في العمق على طول الجبهة فقد افلت من التطويق والابادة بمقاييس كبيرة.

في الاشهر الأولى من الحرب كان صدام حسين يتكلم بلغة «يلوي يد ايران» لارغامها على التنازل عن حقوق العراق. وقد رفض نصائح الاتحاد السوفييتي بانهاء الحرب «بلا غالب ولا مغلوب» لان هذا كان يعني برأيه «حرمان العراق من انتصار قد حققه» والحال هذا هو اقصى ما يتمناه الآن. وقد صرح الرئيس السوري حافظ الاسد في المؤتمر الاسلامي في الكويت كانون الثاني ١٩٨٧ ـ أن القيادة العراقية رفضت وساطته لانهاء الحرب في بدايتها (عندما كان ذلك ممكناً)، ولكن بعد معركة المحمرة

الكارثية في ربيع ١٩٨٢ أعلن العراق في ٢٠/ حزيران/١٩٨٢ انه سحب قواته من ايـران إلى الحدود الدوليـة وانـه على استعـداد للتفـاوض لحل الخلافـات سلميـاً. وقـد رحـب الاتحاد السـوفييتي بهذا الاعلان فـوراً ووصفته (البرافدا) جريدة الحزب الشيوعي السوفييتي المركزية بـ « خطوة في الطريق الصحيح » وعلى هـذا الاسـاس استـؤنـف تـدفـق الاسلحـة السوفييتية إلى العراق بعد أن توقف خلال مدة الغزو العراقي لايران.

وقد تبنت الحكومة العراقية جميع شروط الصلح الديمقراطي العادل التي صاغها الحزب الشيوعي العراقي ولم تجد ما تضيفه إليها سوى تبادل الأسرى التام والشامل.

٣ ـ المرحلة الثانية من الحرب

رفضت الحكومة الايرانية جميع الوساطات التي تقدمت بها الاوساط الدولية والحكومات والافراد ورفضت الدخول في أي مفاوضات سلمية مع حكومة صدام حسين وترفض وقف القتال ـ الشامل برا وبحرا وجـوا، الضروري لكـف ويلات الحرب عـن الشعبين ولا سيما السكـــان المدنيين ولتهيئة المنـاخ المنـاسـب للمفـاوضـات السلميـة والذي يجب أن يقترن باجرائها. فلم تتوقف عند الحدود الدولية بل بدأت بدورها غزو الأراضي العراقية منذ تموز /١٩٨٢ وخاضت أكثر من ٢٢ معركة كبيرة في محاولة منها لاحتلال البصرة ثاني مدن العراق لتنصيب « حكومة اسلامية » تابعة لها فيها وتزداد شهية ايران لاحتلال المزيد من الاراضي العراقية كلما حققت تقدماً في زحفها البطيء منذ نحو خمس سنوات. كما أن الموازنة العسكرية القلقة بين الطرفين المتحاربين تضطرب لصـالـح ايـران جـراء تفوقها في الاحتياطات البشرية والمادية وجراء الشحنات التي تزودها بها

امريكا وغيرها بين حين وآخر وتحد من تفوق العراق في سلاح الطيران وسلاح الدبابات. وتزداد مهمة الدفاع عن العراق صعوبة ومشقة يوماً بعد يوم ولا سيما في ظل الدكتاتورية المعادية للديمقراطية.

وكشف حكام ايران عن تصميمهم لاقامة نظام اسلامي تابع لهم في العراق في حالة انتصارهم في الحرب في مؤتمر طهران المنعقد في ٢٤ ـ ٢٧ كانون الأول ١٩٨٦، حيث شكلت لجنة لوضع دستور العراق المقبل بقيادة مسؤول ايراني إلى جانب لجان أخرى وكل منها بقيادة مسؤول ايراني. وكما يبدو مما نشرته صحافة المعارضة الدينية أن الآمال كانت معقودة على نقل جلسات المؤتمر إلى البصرة وتحويله إلى برلمان (ليختار الحكومة الاسلامية) فيها في ظل الحرب الايرانية وقد اعدت الحكومة الايرانية الدعوات الترحيبية باربع لغات «اهلاً بكم في جمهورية العراق الاسلامية!» التي حملتها القوات الايرانية المهاجمة لمدينة البصرة آنذاك. ولكن الصمود البطولي للدفاع العراقي عن البصرة احبط تلك الآمال.

لم يحضر مؤتمر طهران سوى رجال الدين المقيمين في ايران واتباع ايران الآخرين وبعض الزعماء القوميين الاكراد.

ولا يحاول رجال الدين المعارضون للنظام العراقي وعلى رأسهم السيد باقر الحكيم «رئيس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية» اخفاء حقيقة انهم امتداد للاستراتيجية الايرانية لاحتلال العراق إذ يقول: «إننا نعتبر الجمهورية الاسلامية قاعدة مركزية للثورة الاسلامية. نحن على اتفاق كلي معها في الجانب الايديولوجي والسياسي والاستراتيجي. ونعتبرها دولة مساندة من الدرجة الأولى للقضية الاسلامية العراقية ونحن نتفق مع توجهها على أن العراق طريق القدس. إن ذلك يفرض كثيراً من التعاون

والتنسيق بين المجلس والجمهورية الاسلامية (الغد الديمقراطي / عدد ٢٣ / تموز / ١٩٨٥) في الوقت الذي يؤكد زعماء إيران على تصميمهم على مواصلة الحرب حتى سقوط النظام العراقي « وتحقيق النصر النهائي ». وهذا تصريح للخميني « قائد الثورة الايرانية » نشرته جريدة تشرين ـ دمشق في ١١/ شباط/١٩٨٧. وغدا واضحاً للجميع أن « سقوط النظام وتحقيق النصر النهائي » لا يعني سوى إقامة النظام الاسلامي في العراق ونفي حق الشعب العراقي في اختيار النظام السياسي والاجتماعي « بارادته الحرة » ولا يعني في الحقيقة سوى اطالة امد الحرب وتعريض امن المنطقة والسلام للخطر.

٤ ـ القضية الكردية

أما حضور زعماء المعارضة العراقية القوميين الاكراد في مؤتمر طهران المار ذكره فأمر يثير الاستغراب. فلا الجمهورية الاسلامية الايرانية ولا « المجلس الاعلى للثورة الاسلامية » ولا مؤتمر طهران، تعترف بوجود قضية في الدنيا اسمها « القضية الكردية » أو « القضية القومية » فهل كان كرههم للنظام القائم في بغداد الدافع للحضور؟ أي من باب: « عليَّ وعلى اعدائي يا رب »؟ وهذا بالطبع تعبير عن مزاج يائس وليس عن تفكير سياسي. وهناك تأويل سياسي خطير جداً وهو انه كلما تفاقم الوضع واحتدم النزاع وتوسعت رقعته وتقوض السلام إزدادت فرص بروز القضية القومية الكردية على المسرح الدولي وانفسح المجال لحلها. أما التاريخ فيروي لنا قصة أخرى. وهي أن كردستان تجزأت والحقت بدول المنطقة خلال القرون الخمسة الأخيرة بفضل حروب الفتح، كالحرب التي دارت بين الامبراطوريتين الفارسية والتركية، وأخيراً في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ولم تحلها الحرب العالمية الثانية أما الحرب الثالثة

إذا حدثت فستمحو القوميات والقضايا القومية والبشرية عموما.

إن انهيار السلام بين أمم المنطقة وجو التوتر الدولي لم يكن يوماً ما الجو المناسب لتقدم القضية، وإن أفضل فرصة اتيحت للشعب الكردي كانت في العراق بالذات بفضل اممية الشعب العراقي وروحه الديمقراطية الثورية ومن خلال النضال المشترك بين الشعبين. وبالتالي فإن حل القضية القومية للشعب الكردي يعتمد بالاساس على الانتصار التام لثورة الشعب في العراق وتركيا وايران وليس جراء انهيار الدفاع العراقي وانقسام العراق بين تركيا وايران حربياً أو رضائيا بأي حال من الاحوال: إنها نتيجة كارثية بالنسبة للقضية الكردية بالذات أن تتحول احزابها الراديكالية من العداء للنظام العراقي إلى العداء للعراق ككل.

٥ ـ الوحدة العربية

كما أن استمرار الحرب وانهيار الدفاع العراقي لا يمكن أن يخدم قضية الوحدة العربية بل على العكس توجد علاقة مصيرية بين صمود الشعب العراقي بوجه الغزو الايراني دفاعاً عن حقه في تقرير مصيره بنفسه وانهاء الحرب بدون إلحاق وبين حركة الوحدة العربية أو التضامن العربي. ولا نكاد نجد أمة كبيرة توحدت في كيان دولة واحدة من دون نضال وطني تحرري مشترك. فالامة الروسية توحدت في دولة مركزية واحدة في مجرى النضال الوطني المشترك ضد الغزوات التترية والتركية والسويدية والخ.. ومن ثم توحدت الجمهوريات السوفييتية المستقلة في دولة «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية» في مجرى الكفاح ضد المتدخلين الامبرياليين وحلفائهم. وتشكلت جمهورية الولايات المتحدة الامريكية من خلال حرب التحرر التي شنتها المستعمرات ضد ملوك بريطانيا.

وتوحدت الدويلات الالمانية في دولة مركزية واحدة خلال حروب التحرر ضد النمسا وفرنسا. واتحدت الصين في دولة مركزية واحدة لأول مرة في تاريخها خلال حرب التحرر ضد اليابان ومن ثم ضد عملاء امريكا وتوحد الهنود في دولتهم خلال نضالهم التاريخي الطويل ضد الحكم الاستعماري البريطاني المباشر.

وقد عمل نضال العرب المشترك ضد الاستعمار والصهيونية على تقاربهم من بعضهم في شتى اقطارهم خلال هذا القرن كما لم يفعل أي عامل آخر خلال قرون عديدة. ولا شك في أن التضامن مع الشعب العراقي في حربه الوطنية التحررية ضد الغزو الايراني وضد نظام التبعية الذي يريد فرضه عليه سيقرب الوحدة بينه وبين الشعوب العربية المتضامنة معه كما لا يفعل أي عامل آخر. وبالعكس فإن انهيار الدفاع العراقي في هذه الحرب سيعني وقوع كارثة لا سابق لها في تاريخ الامة العربية الحديث

ولا يوجد شيء يقصر أمد الحرب مثل التضامن مع الشعب العراقي في محنته الراهنة. ولا يجوز النظر إلى مصائر العراق من خلال صدام حسين أو نظامه ـ فصدام يأتي وصدام يروح ونظام يأتي ونظام يروح والشعب العراقي باق ووطنه باق. ولا يوجد وقت لكسب ثقة الشعب العراقي انسب من هذا الوقت الذي يتعرض فيه لأشد المحن في تاريخه منذ سبعة قرون. إن الأقطار العربية المتحررة التي جربت اشكالاً شتى من الوحدة لم تعمر طويلاً لافتقارها إلى السند الشعبي الراسخ تضيع فرصتها التاريخية بانتظار الفرص ومن المحتمل أن تنتبه إلى خطئها بعد فوات الاوان. وعندئذ ستكون النكسة لقضية الوحدة العربية اسوأ من نكستها في حرب حزيران ١٩٦٧ التي لم تستفق منها حتى الآن. والحال أن صمود الدفاع

العراقي وإنهاء الحرب بدون إلحاق سيفتح لقضية الوحدة العربية آفاقاً جديدة لا سابق لها وسيتيح للشعب العراقي الفرصة لمحاسبة حكامه المسؤولين في الاصل عن محنته. كما سيساعد ايران على العودة لاستئناف مسيرتها الثورية ويعيد البلدين إلى صف النضال ضد الامبريالية والصهيونية بدلاً من الاحتراب بينهما. وبامكان الدول العربية المتحررة أن تلعب في هذا الشأن دوراً متميزاً وفعالاً وتاريخياً بحق.

٦ ـ الحرب والوضع الدولي

ومن أهم سمات الحرب الدائرة بين العراق وايران على الاطلاق واسوأها هو انها تدور بين دولتين وطنيتين متكافئتي الحقوق من دول عدم الانحياز. كما انهما دولتان غنيتان بالنفط ومحط اطماع الامبريالية فضلاً عن موقعهما الاستراتيجي المحاذي للاتحاد السوفييتي. ولذا بالضبط فإن الحرب بينهما لا يمكن إلا أن تخدم الامبريالية ولا سيما الامريكية وتابعتها الصهيونية. وهذا بصرف النظر عن نوايا أي من الطرفين. وينسب تصريح بالغ الدلالة لوزير خارجية الولايات المتحدة الاسبق هنري كيسنجر مفاده انه من المؤسف أن الحرب قد تنتهي بخسارة أحد الطرفين فقط! فكل ما يتمناه الدبلوماسي الامبريالي الصهيوني اللئيم هو خسارة الطرفين معاً. ومن هنا سعي امريكا لاطالة امد الحرب بمختلف الاساليب العسكرية والسياسية.

ولعبت امريكا دور المحرض والمشجع لاثارة الحرب بتزويدها العراق بمعلومات زائفة أو على الاقل مبالغ فيها عن نقاط الضعف في القوات المسلحة الايرانية والخ.. كما جمدت الاموال الايرانية في البنوك الامريكية

وصعدت الاعمال العدائية الاخرى بما فيها المناورات المسلحة ضد ايران وتعبئة فلول الشاه المخلوع والخ... مما شجع صدام حسين على ارتكاب مغامرته العسكرية في ايران.

إن الاستراتيجية الامريكية الكروية الجديدة (نيوغلوباليزم) لا تتخلى عن استدراج ايران من جديد كحليف يحاذي أكثر حدود الاتحاد السوفييتي حساسية. وبهذا تفسر صفقة الاسلحة الامريكية لايران التي اثارت بدورها مخاوف المصالح النفطية في امريكا التي تخشى على مصالحها في الخليج من نمو ايران وخروجها من الحرب منتصرة كقوة عسكرية كبيرة. كما اثار مخاوف اصدقاء امريكا ولا سيما في البلاد العربية ورغم ردود الفعل فالسياسة الامريكية سائرة في طريق اطالة امد الحرب بصرف النظر عن الوسائل «فالغاية تبرر الواسطة» في السياسة الميكافيلية الامبريالية.

إن الفرصة الوحيدة امام الامبريالية الامريكية لاستدراج ايران من جديد إلى شباكها الاستراتيجية هي استنزاف قواها في حرب طويلة لا قرار لها ومدمرة للطرفين المتحاربين. وعن هذا الطريق يمكن احتواء العراق أيضاً إذ يبقى مهدداً بشحنة عتاد امريكية أخرى لايران قد تقلب الموازنة العسكرية القلقة لصالح ايران، ويبقى سيف ديموفليس هذا معلقاً بشعرة فوق عنقه. وهذا هو منطق الحياة الحديدي فما أن تتشابك قوتان وطنيتان في صراع مصيري حتى تجدا نفسيهما تحت رحمة الاعداء واخطرهم. ولذلك فإن امريكا تزود ايران بالصواريخ ضد الطيران وضد الدروع وبقطع الغيار عن طريق اسرائيل وغيرها وتضلل الطرفين بالمعلومات القمرية الصناعية الزائفة ولذلك أيضاً عجز مجلس الامن عن اتخاذ

قرارات رادعة بحق الطرف الذي يصر على مواصلة الحرب ويرفض طريق التفاوض السلمي لانهاء الحرب بسلام عادل أو حتى وقف القتال الشامل براً وبحراً وجواً تمهيداً للمفاوضات السلمية. فجاء في بيان نشرته وكالة تاس في ٨ كانون الثاني ١٩٨٧ « أن الولايات المتحدة إذ تعلن قولا عن سعيها إلى ايقاف النزاع العراقي الايراني تصب الزيت في نار الحرب وتسبب الاستمرار اللاحق في اراقة الدماء بين البلدين الجارين. ولذلك يحاولون في واشنطن تبرير المكائد السياسية وصفقات ما وراء الكواليس بصدد الأسلحة، بإحالات إلى ما يسمى « الخطر السوفييتي على بلدان الخليج » أما في الواقع فانه تكمن وراء هذه المخططات النيوغلوبالية للولايات المتحدة التي تريد أن تفرض ارادتها على شعوب هذه المنطقة »، وقد حذر بيان الحكومة السوفييتية من اتساع رقعة الحرب بانجرار دول المنطقة إليها وحتى انجرار قوى أخرى من خارج المنطقة.

ومن المعروف أن امريكا اسست خلال هذه الحرب قيادة جديدة « القيادة المركزية » تغطي عملياتها منطقة شاسعة تمتد من المحيط الهندي إلى الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أما محورها فهو الخليج كما أن حكام تركيا - عضو حلف شمالي الأطلسي - قد صرحوا جهاراً انهم لن يقفوا متكوفي الايدي في حالة انهيار الدفاع العراقي امام الغزو الايراني. وقد حشدوا (١٥٠) الف مقاتل على الحدود العراقية لغرض احتلال المنطقة الشمالية الشرقية من العراق. واضح أن الأتراك الاطلسيون يفكرون باقتسام العراق مع ايران سواء قسمة رضائية أو حربية ويسيل لعابهم بصورة خاصة على نفط كركوك كما انهم يفكرون في تحويل كردستان العراق إلى قاعدة اطلسية ضد الاتحاد السوفييتي وضد سوريا وسائر المشرق العربي.

وعلى النقيض مع الموقف الامريكي من الحرب العراقية الايرانية كان الموقف السوفييتي منذ البدء. ففي المرحلة الأولى من الحرب وطالما كان العدوان العراقي على ايران جارياً قطع الاتحاد السوفييتي امداداته العسكرية للعراق ولم يستأنفها إلا بعد انسحاب آخر جندي عراقي من الأراضي الايرانية. واعلان الحكومة العراقية استعدادها للتفاوض السلمي مع ايران وبعد أن بدأت ايران بدورها غزو الأراضي العراقية. وعاد الاتحاد السوفييتي كما كان المورد الرئيسي للسلاح بالنسبة للعراق، وهذا أحد الاسباب الاساسية لصمود الجيش العراقي في الدفاع عن الوطن للسنة الخامسة على التوالي.

وعمل الاتحاد السوفييتي منذ البداية من أجل انهاء الحرب فوراً ومن أجل السلام العادل بين الدولتين الجارتين، السلام الذي يحفظ لهما استقلالهما الوطني وامنهما وحقهما في اختيار نمط الحياة الذي يريده كل منهما لنفسه، من أجل سلام المنطقة واطفاء بؤر الحرب فيها حفظاً للسلام العالمي. وهذا طبعاً على طرفي نقيض مع ما تريده الولايات المتحدة. وقد عكس بيان وكالة تاس في ٨/ كانون الثاني /١٩٨٧ هذه السياسة بوضوح فقد جاء فيه «أن الاتحاد السوفييتي يؤيد بثبات الاسراع في ايقاف النزاع الايراني العراقي المسلح وحل القضايا المتنازع عليها بين العراق وايران لا في ساحة المعركة بل وراء مائدة المفاوضات السياسية. وهذا هو موقفه منذ البداية ـ بغض النظر عن تطور الوضع في النزاع ومن ذلك في المضمار العسكري. لقد أظهر كامل مجرى الحرب أن الوسائل العسكرية لا تؤدي سوى إلى ابعاد التسوية ولا تقربها وبالرغم من حدة وتعقد المشاكل والتناقضات المتراكمة بين العراق وايران لا توجد موضوعياً عقبات كأداء بوجه ايقاف الحرب واحلال السلام. والأمر الرئيس يكمن في أن يبدي

الطرفان الارادة السياسية والحكمة والسعي إلى الاتفاقات المقبولة لدى الطرفين والتي تأخذ في الحسبان ـ المصالح الشرعية للعراق وايران على السواء ولا بد من النظر لا إلى الماضي بل إلى المستقبل.

« وينبغي أن تقوم التسوية على أسس مبادىء القانون الدولي المتعارف عليها وفي مقدمتها مبادىء الاحترام المتبادل للسيادة ووحدة وسلامة الأراضي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبعضها البعض. وكذلك تأكيد الحدود التي كانت قائمة بين العراق وايران قبل بدء النزاع. وينبغي على البلدين ـ وهذا هو مطلب العصر ـ ان ينطلقا من أن لكل شعب الحق في الاستقلال والحرية والحق في اختيار نمط حياته وتقرير مصيره.

« إن الاسراع في تسوية النزاع من شأنه أن ينسجم مع مصالح الشعبين العراقي والايراني ومصالح كافة دول هذه المنطقة ويعني خطوة هامة على الطريق نحو معافاة الوضع الدولي بصورة عامة ». (وكالة الانباء السوفياتية ـ تاس ـ ٨/ ١/ ١٩٨٧ ـ موسكو).

ذلك هو برنامج السلام الذي طرحته الحكومة السوفييتية في كانون الثاني الماضي حرصاً على السلام العالمي وحرصاً على مصالح الشعبين العراقي والايراني ووفقاً لمبدأ « لكل شعب الحق في الاستقلال والحرية والحق في اختيار نمط حياته وتقرير مصيره » وهو بالجوهر برنامج السلام الذي وضعه المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي المنعقد في تشرين الثاني ١٩٨٥ على أرض العراق.

وكان لهذه الحرب تأثيرها السلبي على التضامن العربي وعلى حركة عدم الانحياز فقد جاء في بيان الحكومة السوفييتية مار الذكر: « إن هذا النزاع الذي لا يجمعه أي جامع ومصالح الشعبين العراقي والايراني اللذين سلكا

طريق النضال ضد الامبريالية في سبيل تعزيز الاستقلال الوطني لا يفيد سوى اولئك الذين يتمنون انهاك واضعاف الطرفين واستعادة مواقع الاستعمار الجديد بالشرقين الادنى والاوسط في هذه الظروف وغدا عاملاً يسبب الخصومات والفرقة في صفوف الدول العربية ويعقد الوضع في حركة عدم الانحياز.

« وليس بسر أن استمرار النزاع العراقي الايراني يستغل من قبل الدول الامبريالية لتوسيع التواجد العسكري في منطقة الخليج لخلق الظروف للتدخل في الشؤون الداخلية للدول الواقعة هناك وبالذريعة الكاذبة الزاعمة بحماية « مصالحها الحيوية » تبعث الدول الواقعة على بعد آلاف الكيلومترات عن هذه المنطقة السفن الحربية إلى هناك وتشكل قيادات عسكرية خاصة وتجري مناورات « قوات التدخل السريع » وتمارس الضغط على البلدان الواقعة هناك وتهدد أمنها وخففت الحرب العراقية الايرانية من المجهود العربي لمحاصرة مؤامرة كمب ديفيد بل واستغلت الامبريالية الفرصة لاستكمالها باقامة وتعزيز قواعدها العسكرية ومحطات الانذار السريع ومخزونات الاسلحة على الأراضي المصرية في صحراء سيناء والنقب ووضع قواعد ومطارات مصر تحت تصرف القوات الامريكية وتهيئة مستلزمات عمل قوات « الانتشار السريع » الامريكية واقامة قيادة مركزية لها في المنطقة « السنتكوم ».

واستغلت إسرائيل فرصة انشغال الجميع بحرب الخليج فاعلنت ضمها للقدس واعتبارها عاصمة ابدية لها وكذلك ضم الجولان السورية ومن ثم شن الحرب العدوانية ضد لبنان وتصاعد تهديداتها لسورية وعملياتها القمعية ضد الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة.. وقصفها المفاعل النووي في بغداد ومقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

وبحجة تنظيم الدفاع عن دول الخليج ضد خطر توسع الحرب العراقية الايرانية اقامت الانظمة الخليجية « مجلس التعاون الخليجي » بقيادة السعودية واشراف الامبريالية الامريكية الذي يشكل حلقة جديدة في سلسلة الاحلاف العسكرية الامبريالية الموجهة ضد حركة التحرر الوطني العربية ويهدد السلام والامن في المنطقة. وجرى سباق في التسلح لم تشهد له المنطقة مثيلاً واستوردت هذه الدول انظمة كاملة من الأسلحة الهجومية والتجسسية متطورة جداً لا يمكن ادارتها واستخدامها إلا من قبل الخبراء العسكريين من الدول الامبريالية كما وسعت قواعدها العسكرية العدوانية فيها وأقامت المناورات المشتركة مع القوات العسكرية الامبريالية فاصبحت مخازن هائلة للاسلحة ومنطلقات لكل عدوان تزمع الامبريالية شنه على اية نقطة في الشرق.

الفصل الثاني

الموقف من الحرب والدفاع عن الوطن

إن الحروب بين الامم والعنف عموماً على طرفي نقيض مع المثل العليا للاشتراكية وجوهرها الانساني. وفي هذا العهد غدت الحرب النووية تعني القضاء على الحضارة وحتى على الانسان نفسه. أما الحروب الموضعية أو الاقليمية فتهدد بأن تتحول إلى حرب كبرى وبالتالي نووية أيضاً مع ذلك ففي العالم اليوم عدة بقع ساخنة ينبغي اطفاؤها. وليس بأمكاننا أن نغمض عيوننا على الحرب أو العنف بل يجب علينا أن نحدد موقفنا من كل حرب وأن نعيد النظر في موقفنا منها لدى كل تقلب من تقلباتها الجدية. ولاجل تحديد الموقف من الحرب المعنية يجب أولاً وقبل كل شيء تحديد طابعها العيني. لنشخص ما إذا كانت حرباً عادلة أم حرباً غير عادلة. وعلى هذا الاساس فقط نستطيع أن نحدد موقفنا منها، وبالاحرى موقفنا من كل طرف من طرفيها: أهو موقف المؤيد أم المعارض؟ أما الحياد فهو قضية شكلية، حقوقية، مجردة أما مضمونه فاما أن يكون حياداً سلبياً أو ايجابياً فليس هناك حياد مطلق ولا يمكن اتخاذ موقف المحايد إذا كانت الحرب تمس مصائر بلد المرء أو امته أو شعبه أو طبقته.

إن الماركسية ـ اللينينية خلافاً للفوضوية والمسالمة البرجوازية لا تقف

بناء على ما تقدم موقف الرافض من الحرب بين الامم على وجه الاطلاق. وتختلف عنها حتى في كيفية مكافحة الحرب غير العادلة بعد نشوبها كما سوف نرى. وكذلك تختلف عن القومية البرجوازية التي تؤيد كل حرب تخوضها امتها هي بالذات ضد الامم الأخرى هجوماً أو دفاعاً بالحق أو بالباطل.

وفي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ انقسمت الاحزاب الاشتراكية إلى فريقين: ثوري أممي ادان حكومته وحربها العدوانية، وفريق انتهازي شوفيني أيد حكومته بمختلف المبررات والذرائع ومنها « إن العدو يغزو بلادي ولا يسعني إلا الدفاع عنها » أو « العدو يمثل دولة رجعية تضطهد الشعوب وعلينا أن نحررها » أما الفريق الثوري الاممي ولا سيما الحزب البلشفي الروسي وعلى رأسه لينين فقد فضح الطابع الامبريالي للحرب، وهو الصراع لاعادة اقتسام المستعمرات والاسواق بين فريقين من « الضواري » أو « اللصوص » كما سمى لينين الدول الرأسمالية الكبرى. فقد كانت الدول الكبرى المتحاربة جميعها امبريالية عهد ذاك. واكد أن غزو المانيا لروسيا وفرنسا، مثلاً لم يكن في حالة انتصاره لغرض استعباد شعبها بل بقصد نهب ممتلكاتها أو مستعمراتها واسواقها الخارجية. ومن هنا فإن « الدفاع عن الوطن » لم يكن سوى نفاق وتضليل للجماهير ولم تكن اهداف الفريق الآخر المعادي لالمانيا لتختلف عن اهداف هذه. ولهذه الاسباب فإن الحرب كانت امبريالية عدوانية من الطرفين.

وقد قال لينين: « من المهم بالنسبة للتافه ضيق الافق أن يعرف أين تقف العساكر، من ينتصر الآن. ومن المهم بالنسبة للماركسي أن يعرف لاي غرض تخاض الحرب المعنية التي يمكن أن تنتصر فيها هذه العساكر

تارة وطوراً تلك » (٢ ـ ص ٨٠) واوضح ذلك بقوله: « .. إن هدف الالمان وكذلك ـ وهذا أهم ـ السياسة المطبقة في حال انتصار الالمان سيتلخصان انذاك في انتزاع المستعمرات، والسيادة في تركيا، وانتزاع اراضي امم أخرى مثلاً بولونيا وما إلى ذلك، ولكنهما لن يتلخصا اطلاقاً في فرض نير اجنبي على الفرنسيين أو الروس. إن جوهر الحرب المعنية الفعلي ليس وطنياً، بل امبريالي. وبتعبير آخر نقول إن الحرب لا تجري لان طرفاً يطيح بالنير القومي والطرف الآخر يدافع عنه. إن الحرب تجري بين طرفين من الظالمين، بين فريقين من قطاع الطرق لتقرير كيفية تقاسم الغنيمة، بتقرير من ذا الذي سينهب تركيا والمستعمرات... إن الدفاع عن الوطن في هذه الحرب هو خداع، هو تبرير لها) (٢ ـ ص ٨١).

أما موقف لينين من الحروب العادلة فيحدده قائلاً. « إن حق الامم في تقرير مصيرها والنضال في سبيل التحرر الوطني التام، في سبيل الاستقلال التام، ضد الالحاق هما الشيء نفسه، وليس بوسع الاشتراكيين أن يرفضوا خوض نضال كهذا ـ في أي من اشكاله: الانتفاضة أو الحرب ـ دون أن يكفوا عن أن يكونوا اشتراكيين » (٢ ـ ص ٨١).

١ ـ مفهوم الوطن

يخترع محرر « ملف الحرب » تعاريف ضيقة جامدة وذاتية للوطن والوطنية ليبرر الموقف الانعزالي السلبي من الدفاع عن الوطن في الحرب العراقية الايرانية في مرحلتها الراهنة فيقول: « الوطن بمعناه البروليتاري: شعب يضم العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية، وارض محدودة، وسلطة سياسية تمثل هذا الشعب وليس الشعب بمعناه البرجوازي الرجعي، أي

كتلة السكان بلا تمايزات » (١ ـ ص ٥٠) في حين ترى الماركسية اللينينية أن « الوطنية مبدأ اخلاقي وسياسي وشعور اجتماعي ومحتواها حسب المرء لوطنه والتفاني في سبيله ، والاعتزاز بماضيه وحاضره والاستعداد للدفاع عن مصالحه . وتوغل عناصر الوطنية كالتعلق بأرض الوطن ولغته وتقاليده توغل بجذورها في الماضي السحيق . وفي المجتمعات الطبقية التناحرية تتخذ الوطنية طابعاً طبقياً لان كل طبقة تعبر عن موقفها الخاص من الوطن من خلال مصالحها الخاصة ... وفي المجتمع البرجوازي تعبر البروليتاريا وحدها عن المصالح القومية الصادقة وبناء عليه فهي حاملة لواء الوطنية الحقة . وتعبر الثورة الاشتراكية محتوى الوطنية الاجتماعي إذ تجعل الاشتراكية ـ مفخرة الشعب جميعاً ـ المحتوى المركزي للوطنية » . (٣ ـ مادة بتريوتزم) .

فالأرض واللغة ، والتقاليد ، والحاضر .. وغيرها من العناصر المكونة للوطن كموضوع . هذه العناصر موجودة منذ الشيوعية البدائية أي قبل انقسام المجتمع إلى طبقات وموجودة في المجتمع الطبقي التناحري وستبقى في المجتمع الاشتراكي أيضاً إذ تضاف إليها الاشتراكية باعتبارها العنصر المركزي . هذه العناصر هي الموضوع أما الذات فهو السكان عموماً في المجتمع البدائي ثم في المجتمع الطبقي التناحري السكان بطبقاتهم الاجتماعية المتناحرة وفي المجتمع الاشتراكي الشعب على العموم . ويجب عدم الخلط بين الذات والموضوع بين موقف كل طبقة من الوطن وبين الوطن بالذات ، بين الوطن كموضوع وبين الوطنية التي هي الموقف الطبقي من الوطن والتي تختلف بين كل طبقة وأخرى . إن الكاتب اراد أن يعيق مفاهيم الوطن والوطنية والدفاع المشروع عن الوطن بإضافة « سلطة سياسية تمثل الشعب » كشرط للوطن « بالمفهوم البروليتاري » حسب زعمه وبالتالي

كشرط لعدالة الدفاع عن الوطن.

· إن الوطن الاشتراكي لا يعني الانقطاع التام عن الوطن التاريخي أو تدميره السابق للاشتراكية بل استمراراً لـه على مستوى أعلى، اغنـاءه بمحتوى جديد هو الاشتراكية بالإضافة إلى المحتوى التاريخي وليس بدلا منه.

إن التعريف الضيق للـوطـن الوارد في الملـف (١ ـ ص ٥٠) يعطـي مفهوماً مشوهاً للمفهوم الماركسي اللينيني للوطن وبالتالي يسيء إلى السمعة الوطنية للشيوعيين. ومن الجدير بالتنويه في هذا الصدد أن المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث ـ ١٩٨٢ ـ في العـراق حـاول تشـويـه أمميـة الحزب الشيوعي العراقي باظهارها بمظهر اللاوطنية أو الكسموبوليتية التي هي ظاهرة من ظاهرات التروتسكية الجديدة. والتعريف الضيق الذي يعطيه « الملف » يصب الماء في طاحونة اعداء الشيوعية كما أن المفهوم الخاطىء للوطن وبالتالي للدفاع عن الوطن ونفي الحروب الوطنية ليس جديداً بل ظهر مثل هذا التشوش في حياة لينين وقد ناضل ضده بكل ما عرف عنه مـن ثبـات وحـزم. وفي رسـالـة إلى انيسـا ارمـانـد (٢٠ / تشريـن الثاني / ١٩١٦) كتب يقول: « لقد ورد في البيـان الشيـوعـي أنـه ليس للعمال وطن. هذا حق ولكن ليس ذلك وحده ما ورد فيه. فقد ورد فيه أيضاً أن دور البروليتاريا دور خاص نوعاً ما لدى تشكل الدولة الوطنية فإذا أخذنا الحكم الأول (ليس للعمال وطن) ونسينا ارتبـاطـه بـالحكـم الثاني. (فالعمال يتكونون كطبقة وطنيا ولكن ليس بالمعنى الذي تبدو فيه البرجوازية) فان ذلك اغراق في الخطأ... في ما يتلخص هذا الارتباط؟ إنه برأيي يتلـخص بالذات في أن البروليتاريا لا يمكن أن ترفـض في

الحركة الديمقراطية (في فترة معينة وفي حالة ملموسة معينة) دعم هذه الحركة وبالتالي الدفاع عن الوطن في الحرب الوطنية» (٢ ـ ص ٩٦).

وجاء في البيان الشيوعي حول نفس الموضوع «يتهمون الشيوعيين عدا ذلك بالرغبة في الغاء الوطن والقومية، ليس للعمال وطن، فليس في الاستطاعة إذن سلبهم ما لا يملكونه وبما أن على البروليتاريا أن تستولي أولاً على السلطة السياسية، وأن ترتفع إلى وضع الطبقة التي تمثل الامة وأن تصبح هي الامة فهي لا تزال بعد إذن وطنية ولكن ليس بالمعنى البرجوازي لهذه الكلمة» (٤ ـ ص ١٤١).

وبذلك ازال مؤسسا الشيوعية العلمية الالتباس بصدد علاقة البروليتاريا بالوطن قبل استيلائها على السلطة السياسة فيه وبصدد مسؤوليتها في الدفاع عن الوطن في المرحلة الديمقراطية وفي الحروب الاشتراكية. وفي المقتطف التالي من رسالة لينين إلى زينوفييف (آب ١٩١٦) مزيد من الوضوح: «نحن لسنا البتة ضد (الدفاع عن الوطن) على العموم لسنا البتة ضد الحروب الدفاعية، ولن تجد يوماً هذا الهراء في أي قرار (أو في أي من مقالاتي) نحن ضد الدفاع عن الوطن وضد NB (لاحظ) الدفاع في الحرب الامبريالية ١٩١٤ ـ ١٩١٦ وفي الحروب الامبريالية الأخرى، التي تميز العهد الامبريالي. ولكن في العهد الامبريالي يمكن أن تقوم حروب (عادلة) دفاعية، ثورية (أي بالضبط ١ ـ وطنية ٢ ـ أهلية ٣ ـ اشتراكية وما إلى ذلك) (٢ ـ ص ٦٨).

هنا يؤكد لينين على الحروب العادلة والدفاعية في العهد الامبريالي أيضاً رداً على اولئك الاشتراكيين الذين يزعمون أن الحروب الوطنية لم

تعد ممكنة في العهد الامبريالي. والمهم بالنسبة لنا أيضاً هو تمييز لينين بين نوعين من الحروب العادلة بين الامم (١ ـ الوطنية) و (٣ ـ الاشتراكية) فالحروب الاشتراكية ضد الدول الرأسمالية تقودها الطبقة العاملة حتماً وبالضرورة، أما الحروب الوطنية فقلة منها قد قادتها الطبقة العاملة مثل الفيتنام وتوجد ٣٠ دولة وطنية (من اصل مائة) قادها الديمقراطيون الثوريون وأما الكثرة فقد قادتها البرجوازية وحتى الاقطاعية ورؤساء القبائل ما قبل الاقطاعية أحياناً هذا من الناحية التاريخية، وما أثبتته تجربة الامم الراهنة في عالمنا اليوم. وقد اقرت الحركة الشيوعية العالمية بعدالة وثورية وديمقراطية هذه الحروب موضوعياً بصرف النظر عن طبيعة قيادتها وبرامجها المجردة من الديمقراطية، ولم تشترط للاعتراف بعدالتها وجود سلطة أو قيادة تمثل جميع « طبقات الشعب » كما يشترط محرر الملف في الثقافة الجديدة ويعتبر ذلك شرطاً ليس فقط لقيادة الحرب الوطنية الدائرة الآن قيادة ديمقراطية ثورية من أجل صد العدوان وتحرير الأراضي المحتلة وتحقيق الصلح العادل باقل التضحيات وباقصر وقت فهذا صائب كشرط أيضاً للاعتراف بعدالة الدفاع عن الوطن في العراق اليوم.

ولم ينفِ لينين كلياً امكانية قيام حروب عادلة حتى بالنسبة للدول الامبريالية فكتب رداً على (كراس يونيوس) قائلاً « فإذا ما ظهرت البروليتاريا الاوروبية عاجزة في غضون ٢٠ سنة، وإذا ما انتهت الحرب الحالية بانتصارات كالانتصارات النابليونية وباستعباد جملة من الدول القومية الزاخرة بالحيوية وإذا ما استمرت الامبريالية غير الاوروبية (اليابانية والامريكية بالدرجة الاولى) بالبقاء كذلك فترة ٢٠ سنة دون أن تتحول إلى اشتراكية مثلاً بسبب حرب يابانية امريكية عندئذ يمكن

حدوث حرب وطنية كبرى في أوروبا . وذلك يعني تطور أوروبا إلى الوراء بضعة عقود من السنين. هذا أمر غير معقول. ولكنه ليس بالمستحيل لان تصور التاريخ العالمي يتقدم إلى الامام تقدماً هادئاً ومنتظماً بدون قفزات كبرى إلى الوراء في بعض الاحيان، هو أمر منافٍ للديالكتيك منافٍ للعلم وغير صحيح نظرياً » (٢ ـ ص ٥٥) .

وقد تحقق ذلك فعلاً بعد ٢٣ سنة في الحرب العالمية الثانية عندما استولت المانيا الهتلرية على فرنسا الامبريالية وهددت استقلال بريطانيا الامبريالية واحتلت هولندا وبلجيكا وهما من الدول الكولونيالية ، وقامت هذه الامم بحروب وطنية تحررية ضد الدول الفاشية ، ولعبت الاحزاب الشيوعية دوراً قائداً في المقاومة الوطنية في الأراضي المحتلة بالتحالف مع الاحزاب اليمينية والامبريالية وبقيادة البرجوازية الامبريالية احياناً كما في بريطانيا دفاعاً عن وطنهم ضد غزو الماني محتمل ولم يقولوا للبروليتاريا ليس هذا وطنك.. ولن يكون وطنك إلا في ظل « سلطة العمال وفقراء الفلاحين » (١ ـ ص ٤٨) أو « سلطة تمثل الشعب » (١ ـ ص ٥٠) كما يفترض المحرر ، المساهم الرئيس في « ملف الحرب » .

٢ ـ تحول طابع الحرب

ينفي خصوم شعار « الدفاع عن الوطن » تحول طبيعة الحرب العراقية الايرانية منذ منتصف عام ١٩٨٢ إلى حرب وطنية عادلة بالنسبة للعراق ويستشهد المحرر في الملف آنف الذكر بلينين بالذات وكعادته بلا تضبيط ولا توثيق فيقول: « ولكن لينين اشترط لتحول الحرب من امبريالية إلى وطنية عادلة من جانب روسيا اسقاط البرجوازية الامبريالية واقامة سلطة العمال وفقراء الفلاحين » (١ ـ ص ٤٨) وهذا صحيح بصدد حرب

امبريالية معينة (١٩١٤ ـ ١٩١٨) بين طـرفين امبريـاليين ليطبقهـا على الحرب بين دولتين وطنيتين ويستخدمها لاثبات ضرورة « حدوث تحول جذري في السلطة لاحد الاطراف المتحاربـة » (١ ـ ص ٤٧) ليحـدث التحول في طابع الحرب » وهو يشترط هذا التحول في السلطة على الطرف الذي تحول دوره في الحرب مـن معتـدٍ إلى ضحيـة ، وليس العكس.. والحال أن التاريخ يعطينا تجارب عن تحول طابع الحرب دون تحول جذري في السلطة . « فالحرب العادلة سواء كانت هجومية أو دفاعية من الناحية العكسرية قد تتحول إلى حرب عدوانية.. وهذا يحدث حين تتفوق في سياق الحرب مصالح طبقات أخرى أو فئات اجتماعية أخرى على خلاف ما كان في مرحلتها الأولى. فإن الحروب العادلة التي خاضتها الجمهورية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر دفاعاً عن مصالح الفئات الواسعة من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة وضد الرجعية ، والاقطاعية قد تحولت إلى حروب غير عادلة ، اغتصابية تتفق مع مصالـح البرجـوازيـة الفـرنسيـة الكبيرة » (٢ ـ ص ٥).

ولنرَ مـا يقـولـه لينين بحق الطـرف الآخـر ، الضحيـة ، في الحروب النابليونية ـ (.. غني عـن القول إن الحكـم الاسـاسي في الديـالكتيـك الماركسي يتلخص في كون جميـع الحدود في الطبيعـة وفي المجتمـع هـي اصطلاحية ومتحركة ، وانه ما من ظاهرة لا تستطيع أن تنقلب إلى ضدها إذا توفرت الظروف لذلك. فالحرب الوطنية يمكن أن تتحول إلى حرب امبريالية وبالعكس واليكم المثل : إن حروب الثورة الفرنسية العظمى قد بدأت بوصفها حروباً وطنية ، وقد كانت كذلك. وقـد كـانـت هـذه الحروب حروباً ثورية هدفها الدفاع عـن الثـورة العظمـى ضـد ائتلاف الملكيات المعادية للثورة وحينما انشأ نـابليـون الامبراطـوريـة الفـرنسيـة

واستغبد جملة من دول أوروبا القومية، الكبيرة، المفعمة بالحيوية، والمتكونة من عهد بعيد، تحولت الحروب الوطنية الفرنسية إلى حروب امبريالية اسفرت بدورها عن حروب وطنية تحررية ضد امبريالية نابليون» (٢ - ص ٥٤).

يلاحظ القارىء أن التحول جرى في فرنسا حيث تحولت السلطة من مثل لاوساط واسعة من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة المدافعة عن الثورة إلى دكتاتورية نابليون الممثلة لمصالح البرجوازية الكبيرة وتبعاً لذلك تحولت الحرب الفرنسية من وطنية ثورية إلى امبريالية. وبالمقابل ائتلاف الملكيات المعادية للثورة (التي لم تتغير انظمتها إلا بعد عشرات السنين) تحولت حربها من عدوانية معادية للثورة إلى حرب وطنية تحررية دفاعية سياسياً وعسكرياً ضد امبريالية نابليون. فالملكية الرجعية التي كانت تمثل الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة كان بامكانها هي أيضاً أن تشن حربها «الوطنية التحررية» ضد «فرنسا الثورة» باعتبار ما كان..، أي ضد فرنسا النابوليونية التوسعية المعتدية.

فعدالة الحرب الوطنية لم تتوقف في يوم من الأيام على رجعية السلطة التي تقودها أو تقدميتها بل على ما إذا كان الوطن مهدداً فعلاً بالالحاق أو الاستعباد أو النهب أو الهيمنة الاجنبية من قبل الغزاة أو المحتلين هذا بصرف النظر عن التصرف البادىء بالحرب في الأصل.

نرى مما تقدم أن الاستشهاد بلينين بلا تضبيط أو توثيق لا يؤدي إلا إلى ايهام القارىء غير المطلع بأن احكام الكاتب واشتراطاته جاءت طبقاً للتعاليم الماركسية - اللينينية.

إن قضية من هو البادىء بالعدوان ليست قضية ثانوية أو تافهة وإن تكن تبعية وكذلك القول في أية أرض يجري القتال، وإن لم تكن هذه القضية العامل المقرر لطابع الحرب العدواني أو العادل. ففي الاغلب الاعم منْ الاحوال يكون الطرف العدواني، الطرف الظالم هو الذي يغزو أرض الاخرين. وكثيراً ما يتستر المعتدي «بالهجوم الدفاعي» أو «بالحرب الوقائية» زاعماً بانه يهجم ضد خطر عدوان ماثل يبيّته الطرف الآخر، ودرء خطر الضربة الأولى، وهو خطر مميت احياناً فيبادر هو إلى انزال الضربة الأولى بخصمه، لينتزع منه المبادرة. وتحت هذه الذريعة «الحرب الوقائية» بادر هتلر إلى احتلال اقطار القارة الاوربية الواحد بعد الآخر بما فيها دول عسكرية كبرى مثل فرنسا وفشل فقط في عدوانه على الاتحاد السوفييتي الذي صمد للضربة الأولى واستفاق منها رغم الخسائر الغالية والهائلة التي تكبدها جراءها.

وهناك وجه آخر للقضية وهو أن المعتدي لا يستطيع ممارسة العدوان بأي حال من الاحوال ما لم يهاجم أرض الطرف الآخر المعتدي عليه لفرض الاحتلال أو الهيمنة أو الالحاق أو فرض نيره عليه أو نهبه. وبناء عليه ناضلت القوى المحبة للسلام وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي لتحريم «الحرب الوقائية» بتعريف المعتدي على أنه المبادر لاستخدام القوى المسلحة ضد الطرف الآخر وقد اقرت هيئة الامم المتحدة التعريف السوفييتي للعدوان بعد نضال طويل ضد معارضة الولايات المتحدة وشركائها. ومع ذلك تبقى اغراض الهجوم أو سياسة المهاجم هي العامل المقرر لتشخيص العدوان، وإلا فإن الحرب التي يبادر إليها طرف كان ضحية لعدوان سابق لاسترجاع ما اغتصبه المعتدي تصبح حرباً عدوانية هي بدورها. فالحرب التحررية التي قد يشنها العرب ضد إسرائيل

مثلاً ... فهنا تبقى إسرائيل هي المعتدية حتى إذا اتخذت وضع المدافع عسكرياً.

لقد أدانت المعارضة العراقية بجميع فصائلها واتجاهاتها الغزو العراقي لايران في ايلول ١٩٨٠ وكذلك فعلت القوى التقدمية في سائر البلاد العربية ليس فقط باعتباره خرقاً لقرارات هيئة الامم المتحدة بل أيضاً بسبب اهدافه الاقتصادية وسياسة الهيمنة على ايران والخليج. والحال كانت ايران منهمكة في صراع صعب مع امريكا وحلفائها الايرانيين من اعوان الشاه، وما زالت في وضع ثوري، وجهازها العسكري مخلخل، والصراع يحتدم على السلطة بين البرجوازية الليبرالية وحلفائها من اليسار من جهة والحركة الدينية السلفية والبرجوازية المحافظة من الجهة الاخرى. وقد جاء الغزو العراقي لصالح تثبت سلطة هؤلاء وضرب قوى اليسار جميعاً مع القوى الليبرالية واحياء الجهاز العسكري والبوليسي القديم بالإضافة إلى تقوية جبروت « الحرس الثوري » المتعصب تعصباً أعمى. وباختصار : لعب الغزو العراقي دور « الصدفة غير الملائمة » على حد تعبير ماركس في تعجيل انتكاس الثورة الايرانية والارتداء القروسطي).

كان الدفاع عن الوطن الايراني ضد الغزو العراقي شيئاً مشروعاً في نظر المعارضة العراقية على العموم. ولم يشترط أحد للاعتراف بشرعية الدفاع عن الوطن الايراني أن تكون على رأسه « حكومة تمثل الشعب بطبقاته الثورية » وبقيت الحرب دفاعية عادلة من الجانب الايراني حتى انسحاب آخر جندي عراقي من الأراضي الايرانية، أي حتى ٢٠ حزيران /١٩٨٢. وفقدت الحرب من جانب ايران طابعها الدفاعي الشرعي منذ الغزو الايراني لأرض العراق ولا سيما وقد عرض العراق

وقف القتال وقبول التسويات السلمية، إذ بدأت ايران بدورها غزو العراق لفرض هيمنتها عليه وعلى الخليج. وبالعكس ولهذا بالذات تحولت الحرب من جانب العراق إلى دفاع شرعي عن النفس، إلى حرب وطنية تحررية بالرغم من طابع حكومته المعادي للديمقراطية. إن الصراع بين ايران والعراق ليس من أجل اقتسام المستعمرات والاسواق الخارجية بقدر ما هو من أجل فرض هيمنة احدهما على الآخر. ولذا لا يجوز اعتبار كل من الدولتين معتديا في الوقت ذاته، وفي آن واحد، بل على التوالي. وليس من حق أي غزو أجنبي أن يأخذ على عاتقه مهمة تغيير النظام القائم في البلد المعرض للغزو، فهذا منافٍ لحق تقرير المصير. فلكل شعب حقه في اختيار النظام السياسي والاجتماعي الذي يريده بملء حريته وليس في ظل الاحتلال الأجنبي. فالغزو هنا يبقى عدوانا صارخا حتى إذا افترضنا جدلاً أن الغزو مجرد من أي غرض عدواني آخر.

ويرفض محرر «الملف» هذا الحكم باعتباره «طريقة ملتوية» في الاستشهاد بلينين بصدد تغيير طابع الحرب رغم انه يعترف بان سياسة ايران هي «احتلال العراق وفرض نظام حكم على شاكلة نظام الحكم القائم في ايران. ومثل هذه النزعة لا يمكن أن تكون إلا عدوانية توسعية، برجوازية لامراء فيها» (١ - ص ٤٧) ومع ذلك لا يعترف - بشرعية الدفاع عن الوطن من الجانب العراقي ضد سياسة الهيمنة هذه بسبب عدم وجود حكومة تمثل «الطبقات الثورية» في العراق! فهل يا ترى من اهداف سياسية الغزو الايراني اقامة مثل هذه الحكومة في العراق؟!!!...

٣ - عدالة حرب الدفاع عن الوطن بالنسبة للجانب العراقي

يقر الجميع بالاهداف التوسعية لايران بما فيهم محرر «الملف» حيث يقول: «فالسلطة التي يراد أن تفرض بقوة الحرب والاحتلال، سلطة

كبار الملاكين والبرجوازية التجارية التي تمثلها القوى الدينية العراقية أو باختصار سلطة الاحتلال ستكـون منـاهضـة لمصـالـح العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية. أما تناقضها مع البرجوازية الكبيرة فيمكن القول انه محصور بزمرة صدام حسين وهي زمرة وليست طبقة». (١ ـ ص ٥١).

خلاصة هذا الكلام هو أن سياسة ايران في حال انتصارها عسكرياً على العراق هي فرض نير مزدوج على الشعب العراقي النير البرجوازي الاقطاعي الاجنبي والنير البرجوازي الاقطاعي العراقي ومع ذلك يقول الكاتب في نفس المقال بان هذا ليس «تناقضا تناحريا» ويرد على دعاة الدفاع عن الوطن العراقي في هذه المرحلة من الحرب: «نقول انهم ينظرون إلى هذا التناقض الخارجي من أجل أن يلغوا أو يسدلوا الستار على التناقض... الداخلي، الاعمق، والاشد استعصاء، أي التناقض التناحري وبالتالي فانهم يقولون إن العدو في الخارج من أجل أن يغمضوا العين عن العدو في الداخل». (١ ـ ص ٤٩) ولكن كيـف يمكـن للمـرء أن يبرهـن منطقيـاً على أن التنـاقـض بين الشعـب والنير البرجـوازي الرجعـي الداخلي هـو «التنـاحـري والاعمـق والاشد استعصاء» من التناقض بين الشعب وبين النير المزدوج الرجعي الاجنبي والداخلي؟!! كيف؟! وبأي منطق؟!! الجواب عند المحرر كما يلي: «وإذ نشدد على الصفة التناحرية للتناقض الداخلي فاننا نحمل في الذهن وقائع تصالح برجوازيات متحـاربـة ضـد عمال وشغيلـة البلـدان المتحاربة» (١ ـ ص ٤٩).

أما احتمال تصالح البرجوازيتين العراقية والايرانية ضد عمال وشغيلة البلدين فهو ليس من المحال بل من الممكنات بيد انه لا يزال طي المستقبل

أو بعيد الاحتمال. هذا بالإضافة إلى أن التحالف بين البرجوازية الرجعية العراقية وايران حاصل فعلاً. أما الحاضر فيشهد تناحراً مصيرياً ليس فقط بين البرجوازيتين بل أيضاً بين الشعب العراقي والبرجوازية الايرانية التي تريد أن تفرض عليه نيراً مزدوجاً هو شر ألف ومائة مرة من النير الداخلي الراهن. فالهرب من هذا الحاضر إلى مجرد إمكان من إمكانات المستقبل البعيد الان هو السفسطة بعينها من الناحية المنطقية وهو الانعزالية السلبية بالضبط من الناحية السياسية. ومع ذلك فان المحرر يرمي دعاة الدفاع عن الوطن « بالتجريدية ». ورد على احتجاجهم على مهاجمة المعارضة المسلحة للجيش العراقي لانها تتناغم مع الغزو الايراني قائلاً « وبالطبع فان هذه الحجة تقود شأن سابقاتها إلى رفع السلاح مع النظام الدكتاتوري ضد العدو الخارجي، كل ذلك بقيادة العدو الداخلي نفسه، أي تقود إلى التعاون الطبقي في الواقع العملي وليس اقل من ذلك » (١ - ص ٤٩).

وهكذا عرّى المحرر الجذور الطبقية لدعاة الدفاع « الصرف » أو « المجرد » وبلا رحمة وكأنه اكتشف كبيرة الكبائر التي لا تغتفر بأي حال من الاحوال وكأنه لم يحدث قط في تاريخ حركة الطبقة العاملة أن تعاونت بقيادة طليعتها مع الد اعدائها الطبقيين في الداخل ضد عدو أشد خطراً غزاها من الخارج - المانيا الهتلرية، ايطاليا الفاشية، اليابان العسكرية الخ. إن كلام الكاتب لا يكشف في الحقيقة إلا جذراً فكرياً من جذور الانعزالية لدى المعارضة العراقية. أما الخطأ المنطقي الذي يقع فيه الكاتب بايراد هذا الحكم فهو التجريد والاختيار إذ انه ينقل حكماً يحرم التعاون الطبقي مع البرجوازية في الاحوال الاعتيادية حيث لا توجد حرب عادلة

ضد غزو اجنبي رجعي يستهدف استقلال البلاد ليحرم التعاون بوجه خطر ماثل كهذا وهذا التعليل التجريدي يتناقض مع الديالكتيك الماركسي الذي ينطلق من الواقع العيني. إن ما يميز خط الانعزالية التعليلي عندنا هو انتزاع احكام صحيحة في اوضاع عينية أخرى لتطبيقها بصورة تعميمية مجردة على اوضاع مغايرة تماماً. ومن امثلة السفسطة نقل احكام تخص الحرب الامبريالية أو العدوانية إلى الحرب الوطنية العادلة كما يفعل المحرر. إن الانعزال عن قضية الدفاع عن الوطن في هذه المرحلة من الحرب هو الذي يضع الجماهير الدفاعية « تحت جناح الدكتاتورية » ليس إلا، لأن هذه ترفع الآن لوحدها شعار الدفاع عن الوطن وتقود الدفاع فعلاً ولوحدها، وبلا منازع. وهكذا تضيع المعارضة بفضل انعزالها وسلبيتها تضيع فرصتها التاريخية بانتظار الفرص.

إن الانعزالية هي المسؤول الأول والاخير عن « الابطاء والتراخي في النضال لاعداد البديل الديمقراطي » (١ - ص ٥١) بوقوفها بالضد من الجماهير الدفاعية ولا سيما القوات المسلحة ولا طريق إلى البديل الديمقراطي في الواقع الراهن إلا طريق الدفاع عن الوطن وضد الغزو الايراني بالتحالف الوطيد مع الجماهير الدفاعية ولا سيما في القوات المسلحة.

إن التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية تناقض تناحري ولا ينتهي إلا بتصفية البرجوازية كطبقة. وكما كان من الضروري التعاون مع الحكومة البرجوازية الكومبرادورية (العميلة) لدرء خطر الفيضان عام ١٩٥٤ فكذلك من الضروري الان التعاون مع الحكومة البرجوازية القومية لدرء خطر الاحتلال الايراني عن العراق. إذ أن التناقض بين الشعب العراقي والعدو الخارجي ليس فقط تناقضاً تناحرياً بل أيضاً

« التناقض الاعمق والاشد استعصاء » وفوق ذلك كله فانه التناقض الطاغي الآن بالقياس إلى التناقض الداخلي دون أن يلغي الاخير وحتى يزول الخطر الخارجي.

وليس من المحال خيانة البرجوازية للوطن واستسلامها للعدو الخارجي خوفاً من ثورة العمال والفلاحين ولكن هذا مستبعد الآن كما قدمنا. فالعمال والفلاحون منهمكون اليوم في الحرب الوطنية التحررية بقيادة البرجوازية وفي تنظيمها العسكري وتحت ضبطها العسكري الان، ولا سيما وأن المعارضة قد عزلت نفسها عن الدفاع عن الوطن ولذلك فالبرجوازية لا تشعر بخطر مباشر من الثورة الآن بقدر ما تشعر بالخطر الخارجي. ولا يمكن بناء سياسة الحركة الثورية على احتمال قد يتحقق او لا يتحقق أو لا يزال في « رحم التاريخ » كما يحلو قوله للمحرر نفسه وكل احتمال يؤخذ بالحسبان دائماً ولكنه لا يغدو منطلقاً للسياسة الماركسية اللينينية إلا عندما يصبح واقعاً. وما دامت الحركة البروليتارية وحزبها محتفظة باستقلالها الايديولوجي والسياسي والتنظيمي فلا خوف عليها من احتمال خيانة البرجوازية واحتمال استسلامها للعدو.

ويسخر محرر الملف من دعاة الدفاع عن الوطن مستعيراً كلمات لينين، بلا تضبيط ولا توثيق كالعادة. انهم « يتباكون على قطعة أرض هنا وقطعة أرض هناك ».. وبذلك يزوغ عن المسألة الرئيسية وهي حق الشعب العراقي في تقرير مصيره بنفسه، وهو ما لا يتباكى عليه الدفاعيون ولا يكتفون حتى بذرف الدموع الساخنة من اجله فقط بل يدعون إلى بذل الدماء الحارة الذكية في سبيله أيضاً. وقد بلغ ضيق الصدر بمحرر الملف من الثقافة الجديدة إلى درجة بحيث القى بظل المشبوهية على « بعض » الدفاعيين (١ ـ ص ٤٥) دون أن يرشد القارىء إلى وسيلة للفرز بين

« المشبوه » و « حسن النية » بل اطلقها بحيث يمكن القاء الشبهة على أي دفاعي ، وهذا يكتب في المجلة العلمية النظرية للحزب.

وقد كتب مساهم آخر في الملف وهو الدكتور فالح الجبورى يقول: « إن رفع شعار الدفاع عن الوطن في ظل هذه السلطة لا يعني إلا الدفاع عنها (١ً) - والاستمرار في الحرب (٢ً)، ودفع العامل العراقي لذبح العامل الايراني (٣ً) » (١- ص ٢٢). (وضعنا الارقام المتسلسلة (١ً ، ٢ً ، ٣ً) للرجوع إليها).

وهكذا حصر مهمة الدفاع عن الوطن بالدفاع عن السلطة القائمة حصراً بأداة الحصر (إلا) (١ً) القاطعة الجارفة التي لا تقبل شريكاً أو منازعاً . وفي هذا الكلام شيء من المبالغة لان الدكتور ينسى بعض « التفاصيل » الدفاع عن حق الشعب العراقي في تقرير مصيره بنفسه واختيار النظام الذي يريده بملء ارادته الحرة. وعن سيادته واستقلاله ووحدة أرضه و... الخ من « التفاصيل » التي لا يعيرها الدكتور أي اهتمام ولا تخطر له على بال وكأن الغزو الايراني لا يستهدفها . ومبعث الحصر المطلق هذا هو أن أخصام الدفاع عن الوطن لا يرون في اللوحة العامة للوضع سوى شيء واحد وهو السلطة القائمة في بغداد اليوم ولا شيء سواها ، وهي التي تحجب عنهم مدى الرؤية فلا يستطيعون أن يروا وراءها أي شيء يستحق الذكر... ولهذا بالذات يلقون مسؤولية (٢ً) الاستمرار بالحرب على عاتق الدفاع العراقي وليس على عاتق استمرار الغزو الايراني ورفض التفاوض من أجل السلم من جانب ايران ورفضها وقف القتال الشامل . أي يرون الاشياء بالمقلوب رأساً على عقب . وعلى هذا الاساس المقلوب تلقي مسؤولية (٣ً) ذبح العامل العراقي للعامل الايراني . على عاتق شعار الدفاع عن

الوطن . . وهذه ثالثة الاثافي حقاً ، إنها جريمة منكرة شنعاء ، ولا أنكر ولا أشنع من أن يقتل العامل أخاه الطبقي العامل من بلد آخر . فهذه جريمة (بحد ذاتها) ونفي لاقدس مبدأ من مبادىء الاممية البروليتارية : التضامن الاممي « يا عمال جميع الاوطان اتحدوا ! » هذا هو اسمى المبادىء الاممية (العامل اخو العامل) مهما كانت جنسيته . وفي الحرب الأمبريالية أي الحرب بين اللصوص من أجل إعادة اقتسام المستعمرات والاسواق ، كان في مقدمة اهداف الرأسماليين ، مشعلي الحرب ، شق وحدة الطبقة العاملة الاممية التي هي أهم حتى من وخدتها الوطنية بنظر لينين . لان شق الوحدة الاممية يعني الحرب ، يعني قتل العامل اخاه العامل ، يعني احباط الثورة البروليتارية ، ومن هنا شعار لينين في الحرب الامبريالية ١٩١٤ - ١٩١٨ بصدد التآخي بين جنود الطرفين المتحاربين وكان هذا طريقه (لرفض الحرب) طريقه لكسر الانضباط العسكري البرجوازي واحلال الانضباط الثوري محله وكان نضالاً ثورياً كلف تضحيات كبيرة وقد تحقق على نطاق كبير في الجبهة الروسية الألمانية عهد ذاك عام ١٩١٧ . كانت خيانة الاشتراكيين الشوفينيين تتلخص في انهم تبنوا شعار « الدفاع عن الوطن » في تلك الحرب بين اللصوص ـ وبذلك حرضوا العامل الروسي على ذبح العامل الالماني أو حرضوا هذا على ذبح العامل الفرنسي ـ ومع ذلك فلا يستطيع تعميم هذا الموقف من شعار « الدفاع عن الوطن » وتطبيقه على جميع الحروب بصرف النظر عن طابعها الامبريالي والوطني العادل أو غير العادل ، إلا من يهجر الديالكتيك ليعتمد التجريد والسفسطة والاختيار .

في الحرب العالمية الثانية استطاع هتلر أن يخدع العمال الألمان وأن يملاء رؤوسهم بأوهام السيطرة على العالم وان يفسد ضمائرهم بنهب الشعوب

الاخرى وأن يخبلهم وبحقد عنصري وحشي فاشي على السلاف ومنهم الروس وأن يجندهم ويزجهم في غزو الاتحاد السوفييتي لتحويله إلى مستعمرة المانية. وقد قاوم الجيش الاحمر السوفييتي مقاومة بطولية ضد البرابرة الغزاة لقد دفن ملايين الالمان في الأرض السوفييتية ويستطيع المرء أن يقول، بدون مجازفة إن الكثير منهم كان من العمال. وهل كان بالامكان صد الغزو الالماني وتحرير الأرض السوفييتية من دون ذبح أولئك العمال الالمان على يد العمال السوفييت. يعني العمال الالمان الذين ملأ هتلر رؤوسهم بأوهام السيادة على الشعوب الأخرى؟...

إن العمال السوفييت الذين ذبحوا اولئك العمال الالمان عندئذ لم يقوموا بواجبهم الوطني فقط بتحرير الأرض السوفييتية وحسب بل حرروا الشعوب الاخرى بما فيها الشعب الالماني من الهتلرية وكان هذا واجبهم الاممي الذي لا يمكن فصله عن الواجب الوطني. والقياس مع الفارق بالطبع ولكن قل لي بربك يا دكتور في أي حرب من الحروب الوطنية العادلة أو الانتفاضات الوطنية لم يذبح العامل في الطرف العادل اخاه الطبقي العامل في الطرف المعتدي والعكس بالعكس؟ افليس هذا مجرد وهم من الاوهام الانعزالية؟ أو السفسطة؟

منذ سنوات وايران توالي هجماتها باسم «كربلاء» وبارقام متسلسلة وهي حملة حربية يشنها الجيش الايراني لاحتلال البصرة في طريقه لتحرير كربلاء من العراقيين، وكربلاء ليست مدينة ايرانية على الحدود أو شرقي دجلة بل مدينة عربية غربي الفرات وفي انف البادية الشامية وهذا الهدف التوسعي العدواني وقد ألبس لباس الدين المقدس باسم «مبدأ حسيني» يعني اسمى مبدأ عند المتدينين الايرانيين. والعمال الايرانيون المدججون بالسلاح في الجيش الايراني الزاحف على البصرة ثم كربلاء يعرفون انهم لن

يصلوا إلى اهدافهم إلا على جثث العمال العراقيين فهل كفوا عن ذبح اخوانهم الطبقيين؟ كلا استمروا ولا يزالون مستمرين فماذا يجب أن يفعل العمال العراقيون المدافعون عن أرض الوطن؟ الجواب جاهز عند اخصام الدفاع عن الوطن: أن يهربوا أما إلى الاهوار أو إلى الجبال وهذا الجواب بالطبع يعكس مشاعر انعزالية سلبية ليس إلا.. مزاجا يائساً لا غير...

وليس تفكيراً سياسياً مسؤولاً ويناقض ابسط قواعد المنطق، والعمال العراقيون ليسوا في هذا المزاج لحسن الحظ، ولا يستمعون إلى هذا الكلام غير المسؤول ولا يعيرون اهتماماً لهذه التمارين المدرسية في النظرية والسياسة المعزولة عن حياة شعبهم ونضاله، فإن العمال العراقيين يعرفون واجبهم الوطني ولا ينسون واجبهم الطبقي والاممي ولهذا يستميتون في الدفاع البطولي عن البصرة المركز البروليتاري الثوري الثاني في القطر وبدفاعهم الصامد لا يحمون وطنهم فقط بل يبددون الاوهام في رؤوس الجنود الايرانيين من عمال وغيرهم فيساعدونهم على التحرر من حكامهم الذين ساقوهم إلى التذابح مع اخوانهم الطبقيين وهذا هو الجانب الاممي في صمود الدفاع العراقي عن الوطن. أما الخوف من أن يؤدي الدفاع عن الوطن إلى دفع العامل العراقي لذبح أخيه العامل الايراني في حرب وطنية تحررية فهو ليس من الشيوعية والاممية في شيء ـ وهذا مثال آخر على التجريد والسفسطة إذ ينقل الدكتور حكما صحيحا من ميدان الحرب الامبريالية، الحرب غير العادلة إلى ميدان الحرب العادلة، حرب الدفاع المشروع عن الوطن.

٤ ـ موقفا حزبي الطبقة العاملة في العراق وايران من الحرب والواحدية الفلسفية الماركسية

يزعم خصوم الدفاع عن الوطن «أن حزبي الطبقة العاملة في ايران والعراق واوساط واسعة من الوطنيين يرفعون شعار ايقاف الحرب ويدعون الكادحين لعدم خوض غمارها، والنضال ضد مسببيها ومواصليها ومصعديها» (١ ـ ص٥٣) فهل هذا واقع؟ ولو كان واقعا فهل هو صحيح بالنسبة للحزبين معاً في وقت واحد وفي طوري الحرب على السواء؟ هل دعا حزب الطبقة العاملة الايرانية (توده) الشعب الايراني إلى (عدم خوض غمارها)، يعني الحرب، عندما كان الجيش العراقي يغزو الاراضي الايرانية ويريد صدام حسين «لوي يد ايران» أي تركيعها؟ كلا بالطبع فعلى العكس من ذلك إذ دعا «توده» الشعب الايراني إلى الدفاع عن الوطن وكان هذا الموقف صائباً ولو تملكه الخوف من «ذبح العامل الايراني لأخيه العامل العراقي، في ذلك الطور من الحرب لما كان اممياً بل كوسموبوليتيا (لا وطنياً) والكسموبوليتية سمة من سمات التروتسكية الجديدة، المعادية للماركسية اللينينية وللاممية البروليتارية، أما الامية البروليتارية الحقيقية والوطنية الصادقة فهما وجهان لحقيقة واحدة. أما موقف الحزب الشيوعي العراقي، حزب الطبقة العاملة العراقية، وفي الطور الأول من الحرب، فقد كان يختلف تماماً عن موقف حزب توده إذ لم يدع إلى الدفاع عن الوطن، لان الوطن لم يكن مهدداً في ذلك الطور من الحرب، بل بالعكس. ولو دعا إلى الدفاع عن الوطن كما دعا توده لكان موقفه شوفينيا وليس امميا. بل دعا إلى وقف الغزو العراقي لايران وسحب الجيش العراقي إلى الحدود الدولية التي انطلقت الحرب منها. وهل كان هذا الموقف الاممي لا وطنيا أو معادياً للوطن؟ كلا بالطبع،

بل بالعكس فلو اصغى دكتاتور العراق لنداء الحزب الشيوعي العراقي عهد ذاك وسحب الجيش العراقي إلى الحدود الدولية، قبل معركة المحمرة، أي قبل ربيع ١٩٨٢ لما حلت تلك الكارثة الكبرى التي لا مثيل لها في تاريخ الجيش العراقي يعني كارثة المحمرة التي خسر فيها الجيش العراقي ما يعادل فيلقاً كاملاً من فيالقه على الاقل وبلغ فيها عدد الاسرى العراقيين ٤٠,٠٠٠ رجل بين جنود وضباط. وهذا مثال آخر على انسجام الاممية البروليتارية الحقة والوطنية الصادقة موقفان مختلفان تماماً: واحد يدعو للحرب الوطنية الدفاعية (توده) والآخر يدعو إلى رفض الغزو العراقي لايران أي الحرب العدوانية «الحزب الشيوعي العراقي» ولكنهما كانا يصبان في مجرى واحد مجرى الاممية الصادقة والوطنية الحقة، كانا متكاملين. هكذا يرشدنا ديالكتيك ماركس الذي يعتمد على تحليل الواقع الموضوعي العيني لا التجريد. هذه هي الواحدية الفلسفية الماركسية بخلاف الواحدية الدوهيرونغية (١٣ـ ص ٤٩) الذاتية التي سخر منها انجلس. وكان لينين في رده على كييفسكي قد اعطى مثالاً على الواحدية الفلسفية الماركسية بانفصال النروج عن السويد عام ١٩٠٥ وموقفي حزبي الطبقة العاملة المتباينين شكلا ومنطلقاً والمتماثلين مبدءاً. واعطى رسماً بيانياً. إذ رسم أساسه على طرفي الصفحة رمز للحزبين ورمزاً للهدف في وسطها. ولكي يتوصل الحزبان إلى نفس النتيجة الاممية الواحدة فعلى كل منهما أن يسير بالاتجاه المعاكس للآخر ليلتقيا في الوسط. فالحزب في الامة السائدة (السويد) قد ايد بلا تحفظ ايضاً النروج والحزب في الامة المسودة (النروج) اكد الاتحاد مع السويد دون أن يقف ضد رغبة شعبه في الانفصال ومع أخذ الفوارق بنظر الاعتبار. يمكن تطبيق ذلك على موقفي حزبي الطبقة العاملة في العراق وايران اللذين تغيرا في مرحلتي الحرب

أما في الطور الثاني من الحرب أي منذ تموز / ١٩٨٢ فقد انعكست الآية إذ تبودلت الأدوار بين المعتدي والضحية، بين الغازي والمدافع، بين العراق وايران وحل احدهما محل الآخر. لقد ميز المؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي هذين الطورين وادان العدوان الايراني على العراق الذي ميز الطور الثاني، فقد جاء في التقرير السياسي للمؤتمر « وبعد معركة خرمشهر في ربيع ١٩٨٢ والهزيمة التي مني بها النظام الدكتاتوري وانهيار مغامراته العدوانية دخلت الحرب طوراً جديداً إذ اضطر مشعلو الحرب في بغداد إلى الاعلان عن سحبهم القوات العراقية من الأراضي الايرانية واستعدادهم لوقف الحرب، واللجوء إلى المفاوضات لحل القضايا المختلف عليها، فيما اصرت الحكومة الايرانية على مواصلة الحرب. وفي الظروف الجديدة واصل حزبنا نضاله من أجل انهاء الحرب على أسس عادلة. واكد رفضه لأي خرق للحدود الدولية بين العراق وايران، وأي اجتياح واحتلال للاراضي العراقية، وصاغ شعار انهاء الحرب على اساس صلح ديمقراطي عادل يستند إلى:

أ ـ نفي حق أي من الطرفين في ضم اراضي أي من البلدين إلى البلد الآخر.

ب ـ احترام الحدود الدولية للبلدين عند اندلاع الحرب.

جـ ـ احترام السيادة الوطنية لكلا الشعبين.

د ـ الاقرار بحق كل شعب في اختيار النظام السياسي الاجتماعي الذي يريده وينسجم مع ارادته الحرة.

« هذا البرنامج الذي ينسجم مع مصالح الشعبين العراقي والايراني لتحقيق سلم وطيد بينهما، يعجز النظامان الحاليان في بغداد وطهران عن اقامته بسبب طبيعتهما الطبقية.

« إن الشعبية التي يحظى بها شعار انهاء الحرب وتبدل ميزان القوى بين الطرفين، ويأس النظام الدكتاتوري من تحقيق الاهداف التي شن الحرب من أجلها وخوفه من تأثير استمرارها وتهديدها لبقائه، حملت النظام على تبني الدعوة لانهاء الحرب. واستغل الموقف الخاطيء من جانب ايران واصرارها على مواصلة الحرب واحتلالها الأراضي العراقية، واعلانها عن عزمها على فرض البديل الذي تريده للحكم القائم، على الضد من ارادة شعبنا وقواه واحزابه الوطنية للتدجيل بشعار « الدفاع عن الوطن » الذي يقصد به صدام الحفاظ على نظامه والدفاع عن سيطرته على مقدرات شعبنا..

« ومن الجانب الآخر فان الحكومة الايرانية لم تكتف برفض انهاء الحرب، بل بادرت إلى شن هجمات كبيرة لم تكن تستهدف الدفاع عن الاراضي الايرانية وانما تستهدف اجتياح العراق. واعلنت عن تمسكها بالاراضي المحتلة والثروات التي تحتويها وخصوصاً حقول النفط في جزيرة مجنون » (٨ - ص ٨٠ - ٨٢).

من كل ما تقدم يتضح أن المؤتمر الوطني الرابع للحزب قد شخص « الطور الجديد » في الحرب الذي بدأ صيف ١٩٨٢ على أنه تبادل الادوار بين الطرفين المتحاربين أي تحول طابع الحرب إلى نقيضه بالنسبة لكل منهما. وهذا يعني أن الطرف الايراني في الحرب غدا هو المعتدي وبعكسه الطرف العراقي بالرغم من التحفظ الوارد في هذا الصدد وهو « تدجيل » صدام حسين بشعار « الدفاع عن الوطن » « للحفاظ على نظامه » وهذا التحفظ يستغله دعاة الانعزالية ضد شعار الدفاع عن الوطن على العموم ومن الاساس على سبيل المغالطة.

إن هذه الحقائق التي جاء بها التقرير كافية لاثبات عدالة الحرب الدفاعية

من جانب العراق في الطور الثاني من الحرب، أي لاثبات صواب شعار الدفاع عن الوطن وعدالته. وقد جاءت ادانة حزبنا للعدوان الايراني على أساس التحليل الماركسي اللينيني للواقع الموضوعي لمجريات الحرب وتقلباتها على أرض المعركة.

إلى ماذا آل موقف (توده) في الطور الثاني من الحرب؟ هل بقي متمسكاً «بالحرب الوطنية الايرانية العادلة»؟ كلا بالطبع فان حزب الطبقة العاملة الايرانية رغم الارهاب الفاشي الذي تعرض له على يد النظام الايراني الراهن بقي ثابتاً على مواقفه الامية وتبعاً لذلك غير موقفه من الحرب على ١٨٠ حالما تم تحرير الاراضي الايرانية من قوات الغزو. وقد اصدرت اللجنة المركزية لحزب (توده) بيانا بصدد الذكرى السنوية السادسة للحروب الايرانية ـ العراقية جاء فيه:

«ايها الشغيلة في ايران.

«منذ ستة أعوام والحرب الايرانية العراقية المدمرة مستمرة. وقد لاقى مئات الالاف مصرعهم في هذه الحرب وجرح وشوه أكثر من نصف مليون انسان ودمرت مئات القرى والمدن والمراكز الصناعية وفاقت الخسائر المادية ٣٠٠ مليار دولار. وتحولت هذه الحرب التي حرضت الامبريالية عليها إلى كارثة وطنية. كما اصبحت عاملاً اساسياً على تقويض الثورة وتصفية، قوى المجتمع النشيطة. ومظهراً من مظاهر همجية الامبريالية والرجعية في بلادنا.

«إن نظام الجمهورية الاسلامية الشبيه بانظمة القرون الوسطى الذي يتوقف مصيره على استمرار الحرب يمارس الآن سياسة العسكرة الاقتصادية والاجتماعية ويستخدم النظام هذه الحرب لتشديد العنف

والارهاب وتمييع الصراع الطبقي وقمع نضالات الشعب العادلة وملء جيوب الرأسماليين واصحاب الاعمال وتجار الاسلحة الدوليين وإعادة المواقع التي فقدتها الامبريالية في بلادنا. ولم تنزل الحرب المدمرة اضراراً بالجيل الحالي فحسب بل وعرضت للخطر الاسس المادية والمعنوية لحياة جيل المستقبل أيضاً.

« وعلى عتبة السنة السابعة من الحرب يبرز خطر تحويلها إلى كارثة اقليمية بصورة لم يسبق لها مثيل، وإن حتّى النظام الحاكم العسكرية وشوفينيته تمهدان الطريق للوجود الامبريالي في الخليج وتهددان أمن شعوب المنطقة.

« ومما لا شك فيه أن هذه الحرب الرجعية التي يقتل فيها الاخ أخاه لا يمكن ان تنتهي بانتصار أحد الطرفين وتشهد السنوات الاربع الأخيرة من هذه الحرب المستعصية على الحل صحة سياسة حزب الشعب الايراني (توده) في هذه القضية. فبعد تحرير خرمشهر وصد هجوم العدو أعلن (توده) أن مواصلة الحرب تخدم المصالح الامبريالية وأن المخرج الوحيد هو وقف اطلاق النار فوراً واجراء مفاوضات من أجل اقامة سلام عادل. وبذل حزبنا قصارى جهده من أجل تعرية السياسة الرجعية والامبريالية في اطالة الحرب ومن أجل تعبئة الجماهير الشعبية للنضال في سبيل السلام.

« يا شعب ايران المحب للحرية والسلام.

« جاءت الحرب إلى مدننا من جديد. والموت ينتظر شبابنا في جبهاتها ووقع وطننا الحبيب في وهدة الفقر والفساد. وفي هذه الظروف فان النضال من أجل السلام هو المهمة الوطنية والقومية الأكثر الحاحاً. ولا

يمكن وضع حد لهذه الحرب المدمرة إلا عن طريق **حركة شاملة مناهضة للحرب** ولا بد من استخدام الطرق والوسائل كافة لتحطيم اجهزة النظام الحاكم الحربية. إن عام ١٩٨٦ هو عام السلام العالمي وتعـزيـز تضـامـن الشعوب في النضال ضد الحرب، فليدو في العالم السابع للحرب الايرانيـة العراقية، في جميع انحاء البلاد نداء تسقط الحرب. عاش السلام».

«توده نيوز» ١٢/١٠/١٩٨٦»

موقفان **مختلفان** من الحرب بين حزبي الطبقة العاملة في كل طور من طوري الحرب المختلفين ولكنهما يصبان في مجرى اممي واحد وقف القتال وأنهاء الحرب بصلح ديمقراطي عادل. فالتطابق بين موقفي الحزبين في البلدين المتحاربين وفي طوري الحرب المتباينين في حرب عادلة من جانب وغير عادلة من الجانب الآخر يعني أن احدهما قد وقع في ضلال في هذا الطور أو ذاك، أو ربما في كليهما.

٥ ـ شعار «إنهاء الحرب فوراً»

وإذا كان هذا التشويش في صف المعارضة العراقية أو بالاحرى في الصف الانعزالي السلبي من شعار «الدفاع عن الوطن» والملابسات التي تعتوره جراء مقاصد صدام حسين الخاصة في الحفاظ على نظامه وبالتـالي عدم صياغة المؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي لشعار الدفاع عن الوطن مباشرة مع انه أقر وأوضح الاسباب التي تستوجب هذا الدفاع والمقدمات الضرورية له والتي تبرهن على عدالته، فان المؤتمر قد صاغ صراحة ومباشرة وبصورة لالبس فيها ولا ابهام وبدقة متناهية شعار «انهاء الحرب على اسس صلح ديمقراطي عادل يستند إلى..» وصاغ بدقة هذه الاسس وبضمنها «الاقرار بحق كل شعب في اختيار النظام السياسي

الاجتماعي الذي يريده وينسجم مع ارادته الحرة » الأمر الذي يهدده الغزو الايراني. فكيف وجد هذا الشعار، شعار « انهاء الحرب فوراً »، المقدم على « اسقاط الدكتاتورية » كيف وجد سبيله إلى التطبيق؟ أو ما هو التفسير الانعزالي لهذا الشعار القطعي الواضح الدقيق المباشر؟.

يقدم الميل الانعزالي في صف المعارضة اعتراضين على تقديم « انهاء الحرب » على « اسقاط النظام »:

أ ـ إن انهاء الحرب قبل اسقاط النظام يؤدي إلى تكريس هذا النظام.

ب ـ إن خروج النظام سالماً من الحرب سوف يمكنه من التفرغ لضرب قوى المعارضة.

والحقيقة هي أن النظام انزل في ظروف الحرب أقسى الضربات في صف المعارضة ولا سيما تلك التي انزلها بواسطة بعض قوى المعارضة ضد بعضها الآخر: الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) ضد الجبهة الوطنية الديمقراطية (جود) في عام ١٩٨٣ وسوف يستمر بعد الحرب أيضاً على هذا المنوال.

واستمرار الحرب لن يجعله اقل شراسة. ولكن ما هو الدرع الذي يقي المعارضة من ضربات النظام سواء خلال الحرب أم بعدها؟. أهو استمرار الحرب؟ علماً أن استمرار الحرب أو انتهاءها ليس بيد المعارضة وحدها ولا بيد النظام وحده بل إن الكلمة الأخيرة الآن في وقف الحرب بيد الجانب الايراني كما يشهد العالم حتى تفرض القوى المحبة للسلم والمجتمع الدولي والشعب الايراني حداً للمجزرة.

إن ما يقي المعارضة من ضربات النظام سواء في حالة الحرب أو حالة

السلام هي الجماهير، أوسع الجماهير. إن انعـزال المعـارضـة عـن الجماهير الدفاعية أوسع الجماهير ولا سيما الجيش العراقي هو الذي يسهل للنظام تسديد اشرس الضربات واقواها إلى المعارضة ـ والعكس بالعكس:

ويعكس ملف الحرب في الثقافة الجديدة التشوش بصدد شعار انهاء الحرب فقد جاء فيه ١ ـ « إن المتطلعين إلى نهاية الحرب.. دائرة اوسع اجتماعياً من دائرة المعارضين للنظام السياسي بوصفه نظاماً يمثل سلطة البرجوازية الكبيرة، وإن اغفال هذه الحقيقة يقود إلى عزلة كبيرة عن الجماهير. إن شعبية شعار انهاء الحرب حقيقة من حقائق الواقع وهو شعار ينسجم مع مصالح اوسع الجماهير الشعبيـة » ٢ ـ « وإن اضطـرار نظـام صدام حسين إلى تبني شعار انهاء الحرب، هو بالذات أمر بالغ الدلالة، رغم أن هذا الشعار يستخدم رسمياً حجة لتصعيد الحرب من جهة، ويعبر من جهة أخرى عن شعور النظام بأن موازين القوى لم تعد تسمح له بتحقيق أي انتصار » ومن هاتين المقدمتين الصحيحتين يستخلص الكاتب الاستنتاج التـالي: « إن قيـادة وتحريـك التطلعـات والاعمال الجماهيريـة المناهضة للحرب يقود لا محالة إلى التصادم مع النظام بل هو يقود إليها فعلا » (١ ـ ص ٥٢) وباختصار (١) اوسع جماهير الشعب تريد انهاء الحزب و ٢ ـ النظام يريد انهاء الحرب، إذن ٣ ـ التصادم يقع لا محالة بين الجماهير والنظام!! كيف امكن التوصل إلى هذا الاستنتاج العجيب الغريب؟ بالاحرى هذه المفارقة الكلامية. فـالمنطق الحديـدي يستلـزم الوصول إلى استنتاج معاكس أي على طرفي نقيض مع هذا الاستنتاج. فلنعد صياغة المعادلة مـع شيء مـن التـوسـع (١) اوسـع جماهير الشعـب العراقي تريد انهاء الحرب (٢) النظام القائم في العراق يريد انهاء الحرب (٣) بعض قوى المعارضة العراقية تريد انهاء الحرب (٤) العدو لا يريد

انهاء الحرب إذن (٥) على الشعب والنظام والمعارضة أن تناضل سوية ضد العدو لانهاء الحرب... وهذا هو الاستنتاج - المنطقي الوحيد.. فكيف استطاع الكاتب أن يقلب الآية؟ وباي حيلة منطقية؟. إن انهاء الحرب بموجب تقرير المؤتمر الرابع جاء مشروطاً بالصلح العادل بلا الحاق ولا تبعية وهذا متفق عليه من الجميع باستثناء العدو. وهذا يقتضي ارغام العدو أما من جانب شعبه أو قوى السلام والمجتمع الدولي أو كليهما لوقف القتال الشامل والجلوس على مائدة المفاوضات السلمية لحل الخلافات سياسياً. وهذا ما ينطبق على انهاء الحرب بصلح عادل وهو ما أراده المؤتمر الرابع. أما ما فعله محرر الملف فهو تغيير الصياغة من « النضال لانهاء الحرب بصلح عادل.. الخ وحولها بشطارة إلى التطلعات والاعمال الجماهيرية المناهضة للحرب » وهذا يترجم في التطبيق العملي اليومي إلى دعوة الطلاب والجنود إلى « ترك مراكز التدريب العسكري وترك الجبهة وهذا يؤدي عملياً إلى فتح الجبهة الدفاعية بوجه العدو وانهاء الحرب بين الطرفين على يد الجيش الايراني وإن أدى هذا إلى استدراج تركيا لاحتلال المنطقة الشمالية من العراق وانتشار الحرب في الشرق الاوسط وخارجه. إن المحرر لم يفكر في مثل هذه النتائج بل يكمل استنتاجه فيقول « وبالتالي فان الاعمال تربي الجماهير على ادراك واستيعاب حقيقة أن أي نضال من أجل السلام لا بد أن يتقاطع مع وجود النظام بالذات، وأن طريق الجماهير إلى فرض نهاية لهذه الحرب، وإلى تحقيق صلح ديمقراطي عادل (وهنا بيت القصيد) هو طريق اسقاط النظام.

إن النضالات الجماهيرية الرافضة للحرب (ويعني بها رفض الدفاع عن الوطن من الجانب العراقي) تختبر هذه الحقيقة على ارض الواقع، ولكن بالتدريج في خضم معارك ثورية متصلة » (١ - ص ٥٢) وبهذه اللباقة

بعود المحرر فيضع اسقاط النظام أولاً وانهاء الحرب اخيراً بعد ان شن معركة شعواء ضد اوساط المعارضة التي ترفض اولوية انهاء الحرب ليستسلم لهم اخيراً استسلاماً مطلقاً. فلماذا هذا الجهد الجهيد الضائع يا ترى؟ يتبادر إلى الذهن سبب واحد وهو اثبات أن المحرر يحارب على جبهتين في آن واحد: دعاة الدفاع عن اليمين ورافضي الدفاع واسبقية انهاء الحرب على «اليسار»!! ولكن المعركة انتهت إلى مفارقة مدهشة حقاً. إذ يستبلم «لليسار» بلا قيد أو شرط. ثم ينتقل فجأة أيضاً إلى اعطاء نفس الاسبقية ونفس الوزن للشعارين الاثنين معاً لاسقاط النظام وانهاء الحرب (١ - ص ٥٢) وقد برهنت الجماهير ولا سيما جماهير الجنود على انها ترفض التخلي عن الدفاع عن الوطن وترك الجبهة وانهاء الحرب على يد العدو الغازي المحتل. برهنت على ذلك ليس بالكلام بل بصمودها البطولي دفاعاً عن البصرة ضد حملة (كربلاء - ٥) في معركة لم يلعب فيها التفوق بالطيران والدروع من الجانب العراقي دوراً يذكر بل كانت معركة مشاة ضد مشاة. ولم يشترطوا إسقاط النظام مسبقاً للدفاع عن البصرة. وهذا يذكرنا بمعركة بغداد ضد فيضان ١٩٥٤ فلم تشترط الطليعة أو الجماهير اسقاط النظام الملكي للتعاون مع اجهزة السلطة ولا سيما الجيش الملكي والشرطة الملكية. وهيأت بذلك ظروفاً أفضل لاسقاط النظام الملكي على يد الجيش والشعب بعد أربع سنوات وربع فقد استنتج الشعب العراقي أن الحكومة هي التي عرضت بغداد للغرق جراء اهمالها وانها كانت عاجزة عن درء الخطر لوحدها وأن الجماهير بقيادة الطليعة كانت قادرة عليه بالتعاون مع الجيش.

إن انهاء الحرب فوراً بصلح عادل من دون (تعميق) وبلا زيادة ولا نقصان لا يتقاطع مع النظام القائم في العراق إن لم يكن لشيء آخر

فلشعوره الآن بعدم امكان تحقيق أي نصر على ايران. وهذا ما يقره الكاتب نفسه. بيد أن هذا الانهاء بصلح عادل يتقاطع مع رغبات النظام الايراني المصمم على خوض الحرب (حتى الانتصار التام) أي حتى الاحتلال التام لارض العراق وتنصيب نظام تابع له في بغداد. ولهذا يرفض كل وساطة، كل تفاوض من أجل السلام، وحتى انه يرفض كل وقف شامل لاطلاق النار براً وبحراً وجواً. ويوافق فقط على حرمان عدوه من مزية تفوقه الجوي الذي يسبب خسائر جسيمة للمجهود الحربي وللسكان المدنيين في ايران. إن النظام الايراني يشترط اسقاط حكومة صدام حسين كشرط مسبق للتفاوض. ولكن لا يوجد سياسي مهما بلغت به السذاجة يصدق أن تحقيق هذا الشرط هو الشرط الوحيد لايران لانهاء الحرب مع العراق هذا أولاً وثانياً كلما اشتد خطر الاجتياح اشتد تمسك الشعب بالحكومة القائمة في البلد المهدد بالاجتياح وامتد اجلها. ولولا الغزو الايراني للعراق منذ تموز ١٩٨٢ لما بقيت الحكومة العراقية حتى الان بعد هزيمة المحمرة ١٩٨٢ ومن السخف استخدام شعار انهاء الحرب كوسيلة للدعاية والتحريض ضد الحكومة الحالية العراقية التي قبلت بجميع الوساطات والقرارات الدولة وجميع شروط الصلح الديمقراطي العادل عدا الذي يشترط اسقاطها ووافقت على جميع شروط وقف القتال الشامل براً وبحراً وجواً.

إن الرفض حتى الآن هو من الطرف الايراني فقط. ولذلك فان شعار انهاء الحرب فوراً ليس مجرد احبولة لجر الشعب للاصطدام مع النظام، ولا قبل كل شيء ولا محض عزاء وسلوان للشعب الذي يتحمل وحده شرور استمرار الحرب، إنه يتطلب أولا وقبل كل شيء تعزيز صمود الجبهة العراقية وتعبئة القوى المحبة للسلام لكي تمارس ضغطها على الهيئات

الدولية إلى حد تحملها معه على اصدار عقوبات ضد الطرف الذي يرفض التفاوض من أجل انهاء الحرب لاحلال الحل السلمي وتحقيق الصلح الديمقراطي العادل ومهما كان هذا صعباً في عالم اليوم فليس من المحال بأي حال من الاحوال. كما يتطلب تنسيق الجهود مع القوى الثورية الايرانية وفي طليعتها، حزب توده المطالبة بانهاء الحرب فوراً. وحتى يحين ذلك اليوم الذي يفرض فيه العالم والشعب الايراني على الطرفين المتحاربين الجلوس على مائدة المفاوضات من أجل السلام العادل فليس أمام الشعب العراقي من خيار إلا الدفاع عن ارضه. إن الدفاع الصلب الصامد من جانب الشعب العراقي لا يحفظ له استقلاله التام وسلامة ارضه وسيادته الوطنية فقط بل يمكنه من التغلب على الدكتاتورية في مجرى الدفاع عن الوطن كما يمكن الشعب الايراني من تغيير حكومته أو اجبارها على انهاء الحرب.

أما شعار «اسقاط النظام (أولاً) وانهاء الحرب (اخيراً)» الذي ينادي به الانعزاليون سواء صراحة أو بطريقة ملتوية فانه يعتمد على أن انهاء الحرب قبل اسقاط النظام سيكرس بقاء الأخير فهو يعكس عدم الثقة بوعي وقدرة الشعب العراقي على اسقاط النظام سواء اثناء الدفاع عن الوطن أو بعد انهاء الحرب، والاتكال على الغزو الايراني واعطائه دور (المحرر).

ولننظر إلى الجانب السياسي العملي: هل بالامكان اسقاط النظام الآن ويوجد من يريد أن يؤجل ساعة الصفر رأفة بالنظام أو لاي سبب آخر؟ واية قوة يمكنها الآن تغيير النظام سوى الجيش الوطني «الشعب القادر» المشتبك في قتال مصيري مع العدو؟ لا توجد. ربما تبقى قوة واحدة

قادرة على اسقاط النظام وهي الجيش الايراني في حالة انتصاره على الجيش العراقي وعندئذ ينقذنا من النظام كما أنقذ دب القصة مربيه النائم من الذبابة اللجوجة التي التصقت بجبينه فقضى عليهما معاً بضربة واحدة من قبضته الجبارة. أو كما لو أن المعارضة الوطنية سمحت لفيضان ١٩٥٤ يغرق بغداد باهمال تحصين السدة الشرقية لاغراق بغداد عاصمة النظام الملكي تخلصاً من النظام. وهذه النتيجة المنطقية التي لا مفر منها هي التي ساقت القيادات القومية الكردية إلى التعاون المفضوح مع العدو مؤخراً وغسلها اليدين من قدرة الشعب العراقي على تحرير نفسه بنفسه بما في ذلك تحقيق الحكم الذاتي الحقيقي للشعب الكردي متناسية تجربتها المأسوية مع شاه ايران ـ كارثة آذار ١٩٧٥ متجاهلة تحفز الجيش التركي الاطلساوي لالحاق كردستان العراق بتركيا ما أن ينهار الدفاع العراقي متجاهلة أن النظام الايراني الراهن لا يعترف حتى بوجود قضية قومية لاي شعب كان.

إن العزلة عن الجماهير بما فيها الكردية وعن قضية الدفاع عن الوطن هي التي ساقتها إلى هذه الورطة التي لا تزيدها إلا انعزالاً.

إن من مبادىء التاكتيك الماركسي اللينيني تعليم الجماهير من تجربتها بالذات ولنر كيف يطبق الكاتب هذا المبدأ « إن قيادة وتحريك التطلعات والإعمال الجماهيرية المناهضة للحرب تقود لا محالة إلى التصادم مع النظام بل هي تقود إليها فعلاً. وبالتالي فان هذه الاعمال تربي الجماهير على ادراك واستيعاب حقيقة أي نضال من أجل السلام لا بد أن يتقاطع مع وجود النظام بالذات، وأن طريق الجماهير إلى فرض نهاية لهذه الحرب، وإلى تحقيق صلح ديمقراطي عادل هو طريق اسقاط النظام. إن

النضالات الجماهيرية الرافضة للحرب تختبر هذه الحقيقة على أرض الواقع، ولكن بالتدريج في خضم معارك ثورية متصلة.. (١ ـ ص ٥٢) إن الجماهير تعرف أن نضالها من أجل السلام يتقاطع فعلاً مع النظام ولكن ليس في هذا الجانب من الحدود الدولية بل على الجانب الآخر الايراني، هذا أولاً. كما أنها تعرف أن ما تعنيه الانعزالية بانهاء الحرب هو رفض الحرب من جانب واحد وهو الجانب العراقي وهذا يعني الاستسلام للاحتلال الايراني. وقد اعطت الجماهير الجواب على هذه الدعوة بدفاعها المجيد عن البصرة خلال الشتاء الأخير. وبدلاً من المحاولات العقيمة لتعليم الجماهير بهذه الطريقة المشوهة بتحويل شعار انهاء الحرب إلى شرك تشترك فيه الجماهير بمخانقة مع النظام يجب أن نحاول التعلم من تجربة الجماهير الأخيرة لعلها تساعدنا على فهم ما نقرأه عن التعلم من الجماهير وتعليم الجماهير.

إن الانعزالية لا تلتزم بمقررات المؤتمر الوطني الرابع للحزب بخصوص الحرب وتشوه قراراته فالشعب العراقي لا بد له أن يدافع عن حقه في تقرير مصيره بنفسه بما فيه حقه في اختيار النظام السياسي الاجتماعي الذي «يريده وينسجم مع ارادته الحرة» على حد تعبير المؤتمر الرابع. وهذا لا يأتي له في طل الاحتلال الاجنبي أو تحت طائلة الغزو الاجنبي. ومن هنا ضرورة الدفاع عن الوطن وعدالة هذا الدفاع، وبصرف النظر عن «تدجيل» رأس النظام الراهن وما يرمي إليه من وراء شعار الدفاع عن الوطن. فصدام يأتي وصدام يروح والشعب العراقي باق والوطن العراقي باق. إن دعوة الجنود لترك الجبهة لن تؤدي فقط إلى انهيار نظام صدام حسين بل سينهار معه الاستقلال الوطني ويقع الشعب العراقي تحت نير مزدوج للبرجوازية الرجعية الاجنبية والداخلية. إن صدام يقاوم من أجل

بقاء نظامه تحت لافتة الدفاع عن الوطن، هذا حق، ولكن الجيش العراقي والشعب العراقي يقاتلان الغزاة الايرانيين من أجل اشياء اخرى كالدفاع عن الوطن والاستقلال التام وحق تقرير المصير بما فيه حق الشعب في اختيار النظام السياسي والاجتماعي الذي يريده ووحدة ارض العراق وسلامتها والخ.. فهل تصبح هذه الاشياء تافهة باطلة لمجرد أن رأس النظام يريد بقاء نظامه؟ أم أن الغزاة لا يستهدفون هذه الاشياء؟ هل اصبح العراق ضحية للعدوان أم لا؟ هل من حق شعبه الدفاع عن وطنه أم لا؟ لا يمكن التهرب من هذه المسائل لمجرد أن العراق لا يزال تحت حكم صدام حسين وأن هذا الدكتاتور يريد من «التدجيل» بشعار الدفاع عن الوطن الدفاع عن حكمه بالذات. فما من حكومة في التاريخ تخلت عن الدفاع عن حكمها لدى دفاع الشعب عن وطنه. إن مثل هذا التهرب يعتمد على الاستخفاف بالاحتلال الايراني وما يرمي إليه من فرض نظام اسلامي تابع لايران أي اخضاع ما هو رئيس آنيا إلى ما هو غير رئيس آنيا وهو بالضد من المنطق الديالكتيكي، فهو الاختيارية بعينها.

ومع احتدام الصراع التناحري بين الطرفين المتحاربين تزداد المواقف الوسطية بينهما حراجة بالنسبة للقوى الوطنية كافة وليس امامها إلا سبيلان فاما تبني قضية الدفاع عن الوطن واما الارتماء في احضان العدو كما فعل بعض الزعماء القوميين الاكراد أو الوقوع تحت رحمته.. بصورة من الصور وعندئذ يبرر المرء موقفه الحرج بانه غدا بين نارين ما العمل؟ شأنه في ذلك (ولا مناقشة في الامثال)، شأن من قتل اباه ثم طلب الرأفه لانه غدا يتيماً!!

إن منشأ هذا الموقف الحرج بالنسبة للمعارضة هو موقفها الانعزالي السلبي من الدفاع عن الوطن، في الطور الثاني من الحرب وهجماتها على الجيش العراقي المدافع عن الوطن. وايا كانت نتيجة الحرب الدائرة الان فان الافاق مسدودة بوجه المعارضة ما لم تغير موقفها جذرياً وتتبنى قضية الدفاع عن الوطن باعتبارها قضيتها بالذات وتتحالف مع الجيش العراقي المدافع عن وطنه وكلما تأخرت كان الثمن افدح وقد يأتي الرأي الصائب بعد خراب البصرة، يعني بعد فوات الاوان.

وفي الاونة الاخيرة أخذ يرد في الادب الانعزالي باسلوب اللف والدوران تعبير « الدفاع عن الوطن » بتصنيفه إلى الدفاع عن الوطن « المجرد » وغير المجرد « والمقصود بالدفاع » المجرد هو الدفاع الملموس عن الوطن الذي يضطلع به الجيش العراقي بالفعل والذي يدعمه دعاة الدفاع عن الوطن ويعتبره الانعزاليون دفاعاً عن النظام واندماجا به ويجب أن ينبذ ويحارب. أما الدفاع « غير المجرد » الذي يدعون له فيعني « انهاء الحرب واسقاط الدكتاتورية » وكيف تنهي الحرب بدعوة الجنود إلى ترك الجبهة بوجه الغزو الايراني المتفاقم ومقاطعة التدريب العسكري مما يؤدي إلى تعريض البلاد إلى الاحتلال الايراني وفرض نير مزدوج على الشعب العراقي وهذا ربما يسمى الدفاع عن الوطن « غير المجرد » واحياناً يضيق مفهوم الدفاع عن الوطن بحدود امكانيات المعارضة المسلحة المتواضعة جداً بنسبة واحد (١٪) إلى القوات المسلحة. ونسيان الموقف السياسي للمعارضة من الدفاع عن الوطن بدعم الجيش العراقي والشعب العراقي في صموده ضد الغزو الايراني الذي هو اهم بما لا يقاس من موقفها العسكري لعلاقته بالنهضة السياسية والروحية الضرورية لصد الغزو وتحرير الأراضي المحتلة ريثما يتسنى انهاء الحرب واسقاط الدكتاتورية.

الفصل الثالث

الحرب والثورة

ليست كل حرب تؤدي بالضرورة إلى الثورة وليست كل ثورة تأتي بسبب الحرب. فالمحرر مصيب عندما ينفي العلاقة السببية بينهما فقط. بيد أن الحرب قد تكون معجلاً هائلاً للثورة. وعلاقة الثورة بالحرب الامبريالية غيرها بالحرب الوطنية. ولذا يجب أولاً وقبل كل شيء تشخيص ما إذا كانت الحرب امبريالية اغتصابية أم وطنية، عادلة. ومن دون هذا التشخيص، وبصواب، لا يمكن اكتشاف العلاقة الحقيقية بين الظاهرتين الاجتماعيتين المتباينتين ـ الحرب والثورة ـ بيد أن الانتفاضة الوطنية التي تقوم بها الأمة المظلومة ضد الأمة الظالمة لا تختلف إلا شكلياً عن الحرب بين أمتين.

وفي عشية ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى التي جاءت خلال الحرب الامبريالية كتب لينين يقول «أما ان الحرب الامبريالية الحالية تشيع، برجعيتها ومشقتها، روح الثورة بين الجماهير وتعجل نشوب الثورة، فإن هذا صحيح ويجب قوله. وسيكون هذا صحيحاً ويمكن قوله عن الحروب الامبريالية على العموم، بوصفها حروباً نموذجية بالنسبة لعهد الامبريالية ولكن لا يجوز في أي حال من الأحوال الجمع بين الأزمات والحروب» (٢ ـ ص ٤٥).

إن هذا التداخل بين الحرب الامبريالية والثورة الاجتماعية في العهد الامبريالي ليس وليد الصدفة الطارئة فكلا الظاهرتين المتباينتين ينبع من التناقضات التناحرية للمجتمع الرأسمالي والنظام الامبريالي العالمي. ولكن في ظروف أخرى وحالات أخرى قد تلعب الحرب دور « الصدفة » وقد تكون حاسمة في تقرير مصير الثورة كما جرى في كومونة باريس جراء الغزو البروسي لفرنسا. فقد كتب ماركس لكوغلمان يقول: « وهذه المرة لا يجب البحث بأي حال من الأحوال عن « الصدفة » الحاسمة غير الملائمة في ظروف المجتمع الفرنسي العامة، بل يجب البحث عنها في وجود البروسيين في فرنسا، ووقوفهم على أبواب باريس بالذات » (٥ ـ ص ١٧٧).

فالغزو البروسي لفرنسا كان بالنسبة للمجتمع الفرنسي « صدفة » كما يقول ماركس بتحفظ بين قويسات « . » لأنه في الوقت ذاته كان (ضرورة) بالنسبة للمجتمع البروسي ولكن بيت القصيد هو أنه كان « الصدفة » الحاسمة غير الملائمة » بالنسبة للثورة البروليتارية الفرنسية. وهذا يجب ألا يغيب عن البال لدى دراسة آفاق الثورة ومصائرها وعلاقتها بالحرب الوطنية الدفاعية العادلة في البلد الذي يتعرض للغزو الأجنبي الذي يهدد استقلاله وسيادة شعبه وحقه في تقرير مصيره بنفسه بما فيه اختيار النظام السياسي ـ الاجتماعي الذي يريده بملء ارادته الحرة.

ويحاول خصوم الدفاع عن الوطن عندنا اليوم الاستشهاد بماركس لاثبات أنه لا يجب على البروليتارية الدفاع عن « الوطن البرجوازي » وان دعاة الدفاع « المجرد » عندنا اليوم اذ يعارضون الكفاح المسلح ضد الجيش المدافع عن الوطن إنما يدينون منطقياً أو من حيث النتيجة

الكومونة والثورات الروسية والصينية والفيتنامية و « ثورات أخرى لا تزال في رحم التاريخ » (١ ـ ص ٤٩).

ولذلك فإن عرضاً سريعاً لتقلبات الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) وكومونة باريس (١٨ آذار - ٢٨ أيار ١٨٧١) وموقف ماركس وانجلس و « الاممية الأولى » منهما يعطينا دروساً لا تقدر بثمن في الموقف من الحروب الوطنية الدفاعية العادلة وعلاقتها بالثورة.

بدأت الحرب الفرنسية / البروسية في ١٩ تموز ١٨٧٠ ووقف ماركس في المجلس العام للأممية الأولى إلى جانب بروسيا ضد فرنسا بعد أن فضح دسائس الحكومتين البروسية والفرنسية وحذر الطبقة العاملة الالمانية بقوله: « وإذا سمحت الطبقة العاملة الألمانية للحرب الراهنة بأن تفقد طابعها الدفاعي المحض وتنتكس إلى حرب ضد الشعب الفرنسي فإن النصر والهزيمة عندئذ سيهددان بالهلاك على حد سواء.. » (٦ ـ ص ٢٢٩) وقد تحقق ما كان يخشاه ماركس وتحولت الحرب الدفاعية من جانب بروسيا إلى حزب نهب فرنسا. وغير ماركس والأممية الأولى موقفهما جذرياً من الحرب، لم يتخذا موقفاً وسطياً بين الطرفين المتحاربين، أو موقفاً واحداً يدين كلاهما باعتبارهما معتدين « والبادىء أظلم » كما يقول البعض الآن، بل انحازا إلى جانب فرنسا ضد المعتدي الجديد، البروسي، وقد هاجما الحكومة البرجوازية الفرنسية الجديدة لا لأنها واصلت الحرب الدفاعية بل لأنها خانتها. وقد كتب ماركس إلى يوبر « .. ولكن كل هذا يثبت ان الحكومة الفرنسية ذاتها اعتبرت الاممية حليفة للجمهورية الفرنسية ضد الغازي البروسي. وبالفعل كانت الأممية الحليفة الوحيدة لفرنسا في زمن الحرب » (٥ ـ ص ١٨٩).

وفي ثورة ٤ أيلول ١٨٧٠ في باريس على أثر وقوع امبراطور فرنسا وجيشه في الأسر أسقطت الامبراطورية وأعلنت الجمهورية وتولت السلطة حكومة برجوازية مؤقتة باسم حكومة « الدفاع الوطني »، وفي ٦ أيلول كتب ماركس النداء الثاني « لجمعية الشغيلة العالمية » أي الأممية الأولى جاء فيه: « وعلى ذلك تجد الطبقة العاملة الفرنسية نفسها في حالة صعبة للغاية، وكل محاولة لقلب الحكومة الجديدة في وقت الأزمة الحالية إذ يكاد العدو يدق أبواب باريس تكون من جنون اليأس. ينبغي على العمال الفرنسيين أن يؤدوا واجبهم كمواطنين. ولكن لا ينبغي أن تغرر بهم التقاليد القومية لعام ١٨٩٢ كما سمح الفلاحون الفرنسيون لأنفسهم بأن يخدعوا بالتقاليد القومية للامبراطورية الأولى. ينبغي عليهم ألا يستعيدوا الماضي بل أن يبنوا المستقبل. فليتعلموا بهدوء وعزم جميع الوسائل التي تعطيهم إياها الحرية الجمهورية لكي يوطدوا بصورة أرسخ تنظيم طبقتهم الخاصة » (٦ ـ ص ٢٣٩).

وبالضد مما يستخلصه خصوم الدفاع عن الوطن عندنا نرى ماركس هنا يحذر العمال تحذيراً جدياً من محاولة قلب الحكومة التي تؤدي إلى الحرب الأهلية في حين أن البلد معرض للاحتلال الأجنبي وينصحهم بالقيام بواجبهم « كمواطنين » فهل يعني هذا الدفاع عن الوطن؟ وهل يعني التحذير من تقاليد الماضي القومية الكف في الحال الحاضر عن الدفاع عن الوطن؟ أم لكي يديروا ظهورهم لمصائر وطنهم ويستعملوا بهدوء وعزم جميع الوسائل التي تعطيهم إياها الحرية الجمهورية لتوطيد تنظيمهم الطبقي؟. المقصود بتقاليد ١٧٩٢ القومية الحروب الدفاعية التي خاضتها الثورة الفرنسية لمصالح جماهير واسعة من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ضد ملكيات أوروبا الرجعية والحال ان البرجوازية الفرنسية من

حرب ۱۸۷۰ - ۱۸۷۱ كانت تخشى الشعب أكثر من العدو والغازي، ولهذا خانت الوطن فعلاً واستسلمت للعدو لقمع ثورة الشعب، وإلى هذا الخطر نبه ماركس عمال فرنسا مقدماً، فهو أولاً حذرهم من خطر المبادرة إلى الحرب الأهلية من جانبهم في حين كان الغزاة يزحفون على وطنهم ويدعونهم صراحة إلى القيام بواجبهم كمواطنين وهـذا لا يعني في مثـل تلك الظروف سوى الدفاع عن الوطن. ولكنه يحذرهم في نفس الوقت من خطر المزايدة الوطنية مع البرجوازية الصغيرة ولا سيما الفلاحين فنبههم إلى واجب تنظيم طبقتهم. وقد وقع فعلاً ما كان ماركس يخشاه، إذ طغى الشعور الوطني على العمال الباريسيين فلم يلاحقوا قوات الحكومة المنهزمة إلى فرساي بعد ۱۸ / آذار / ۱۸۷۱ فكتب للكومونة الفشل منذ بدايتها، لأن العمال كانوا يخشون انتشار الحرب الأهلية في حين أن الحكومة هي التي بدأتها بعد أن استسلمت للألمان.

ولنتابع أهم الأحداث قبل قيام كومونة باريس لنرى كيف تفاعلت مهمات الدفاع عن الوطن مع مهمات الثورة أي انتقال السلطة السياسية للشغيلة نقلاً عن آخر مرجع ماركسي لينيني موثوق «الحركة العمالية العالمية قضايا النظرية والتاريخ» المجلد (۲).. (۹ - ص ۱٥۱ - ۱۷۳).

- في الثامن عشر من أيلول ۱۸۷۰ أحكمت القوات الألمانية الطوق حول باريس وبدأ حصار الأشهر الأربعة للعاصمة. وقد اضطر تقاعس حكومة الدفاع الوطني عن تنظيم المقاومة ضد البروسيين شغيلة باريس على أن يأخذوا على عاتقهم حل العديد من المشكلات الملحة، وأن يجدوا، لأنفسهم، الاشكال اللازمة لتنفيذ المهمات الاقتصادية والادارية كتوزيع المواد الغذائية، ورعاية أسر المقاتلين وتقديم المأوى للاجئين.. إلخ.

ـ وتجدر ، في المقام الأول ، ملاحظة المبادرة التي أبداها اجتماع ٥٠٠ عضو من أعضاء الأممية والغرف النقابية في الخامس من أيلول عام ١٨٧٠. فقد تقرر في هذا الاجتماع تشكيل لجنة لليقظة الجمهورية في كل دائرة من دوائر باريس العشرين. وفي التاسع من أيلول نشرت الصحافة نبأ تشكيل اللجنة المركزية للدوائر العشرين مما يدل على مدى استعداد الجماهير للعمل المنظم.. وقد ضمت لجان الدوائر شأنها شأن اللجنة المركزية للدوائر العشرين الأعضاء المنتخبين من قبل الشعب الكادح الذين رشحتهم اجتماعات سكان الأحياء والشوارع المختلفة.

ـ وفي الخامس عشر من أيلول ظهر على جدران باريس اعلان (عرف باول اعلان أحمر) يتضمن برنامجاً مفصلاً يقول ان الدفاع عن الوطن والجمهورية هو هدف اللجنة المركزية وطالب البرنامج بانتخاب جميع الأشخاص المسؤولين وحل البوليس، ونقل مهماتة إلى الحرس الوطني، وتسليح مجموع الشعب، ومصادرة احتياطي المواد الغذائية والأبنية السكنية لتلبية احتياجات السكان.

ـ والتفت حول لجنة الدوائر العشرين، العناصر الثورية الطليعية للطبقة العاملة الباريسية وحازت على دعم أعضاء الأممية الكامل. ففي التعميم الذي وزعه المجلس الاتحادي الباريسي للأممية، على الفروع في الأقاليم.. وصف تشكيل لجان اليقظة الجمهورية بأنه المهمة الرئيسية لأعضاء الأممية في باريس. وقد قيمت هذه اللجان الدعوة لاتخاذ تدابير حيوية ضد الرجعية البرجوازية والبونابارتية. ولتعزيز الدفاع عن باريس (كجنين) للكومونات الثورية المقبلة.

ـ وجرى انسجاماً مع تنظيم الشغيلة المجتمعي ـ السياسي المدني تنظيم

السكان: الرجال في صفوف الحرس الوطني بسبب ظروف الحرب وكانت الجمهرة الأساسية من مقاتلي الحرس الوطني تنتمي إلى شغيلة باريس، أي إلى البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة التي قاسمت البروليتاريا ظروف حياتها الصعبة. وإن انتخابات قادة الحرس الوطني التي جرت في النصف الأول من أيلول أبرزت ثقة هذه الجماعة بزعماء الحركة البروليتارية.

ـ وكانت الادارة العسكرية غير مستعجلة لتسليح الطبقة العاملة في باريس. وكانت تعرقل توزيع الأسلحة وتموين الكتائب، وتؤخر اعتماد القادة الذين انتخبتهم، وتقيد حقوق مجالس الكتائب، الأجهزة المنتخبة التي اقتصر نشاطها في البداية على المهمات الاقتصادية التنظيمية، ومن ثم اكتسبت طابعاً مجتمعياً سياسياً.

ـ ونظراً لتصاعد نضال عناصر الحرس الوطني الثوري ضد انتقاص حقوقهم، فإن دور الحكومة الخياني، ومحتواها الطبقي، كانا يتبديان بوضوح متزايد. لقد كان تحول أفضل جزء من الحرس الوطني إلى جيش ثوري بروليتاري من أجل حل المهمة الطبقية للبروليتاريا، مهمة اقصاء البرجوازية عن السلطة، جزءاً لا يتجزأ من العملية العامة لاستقطاب الوعي الاجتماعي في وضع طرح فيه مجرى الأحداث أمام البلاد مهمة وطنية عامة (هي الدفاع عن باريس، وحماية الجمهورية، وانقاذ الوطن) وكانت البرجوازية في أثناء ذلك تخشى الشعب المسلح مما جعلها تسلك طريق الخيانة الوطنية.

ـ إن الحكومة التي أرعبها التنظيم الذاتي لجماهير الشغيلة الذي ظهر في باريس بدون أية قيادة مرئية وأفزعتها ضرورة تسليح هذه الجماهير للكفاح ضد الألمان، حاولت أن تسرع في عقد اتفاق للسلام.. وجرى

اقرار خطة استنزاف قوى الجماهير الشعبية بحجزها في العاصمة المحاصرة.

وكانت الجماهير في العاصمة المحاصرة تتأثر وتتجاوب بسرعة وفعالية مع أي نبأ قادم من جبهات القتال. فالنبأ عن استسلام قلعة ميتس كان دافعاً للانتفاضة في ٣١ تشرين الأول ١٨٧٠ فبدأ حاملو اللافتات التي كتب عليها شعارات «الانتخابات للكومونة» و «الحرب حتى النهاية» و «لا لأية هدنة» بالتجمع في مختلف ارجاء المدينة (فليلاحظ القارىء شعاري الدفاع إلى جانب الشعار الطبقي لنقل السلطة إلى العمال).

ـ وقد كتب انجلس في مقدمة ١٨٩١ «للحرب الأهلية في فرنسا»: «سرعان ما انفجر التناحر بين الحكومة التي كانت مؤلفة بكاملها تقريباً من البرجوازيين وبين البروليتاريا ـ المسلحة. وفي ٣١ / تشرين الأول اقتحمت كتائب العمال دار البلدية وقبضت على بعض أعضاء الحكومة ولكن الخيانة ونكث الحكومة السافر لتعهداتها وتدخل بعض الكتائب البرجوازية الصغيرة كل ذلك أدى إلى اطلاق سراح المقبوض عليهم وتفادياً لنشوب الحرب الأهلية داخل مدينة تحاصرها قوة عسكرية عدوة تركت الحكومة السابقة في الحكم (٦ ـ ص ٢١٦).

ـ وفي غضون ذلك خلقت الحالة في ساحات الحرب، والحركة الثورية في الأقاليم، وضعاً أصبح معه انتصار العمال، في باريس، قادراً على قلب مسيرة الأحداث وتغيير طابعها وعلى هذا علق الآمال لا الباريسيون البلانكيون وقادة اللجنة المركزية للدوائر العشرين فحسب، بل وأيضاً الثوريون في الأقاليم وفي البلدان الأخرى.

ـ واعتبر ماركس ان مثل هذه الآمال كانت تقوم على أرضية واقعية حقا وقال:

«لو أنه في بداية تشرين الثاني / ١٨٧٠ كتب النصر للكومونة في باريس (عندما كانت بدايتها قد أرسيت في مدن البلاد الكبيرة، وكان لا بد أن تحذو فرنسا حذو هذه المدن) لأمكن عندها انتزاع قضية الدفاع من أيدي الخونة والقيام بالدفاع بتلك الحماسة التي امتلأ بها نضال باريس البطولي، ولتغير تماماً مجمل طابع الحرب، ولتحولت هذه الحرب إلى حرب فرنسا الجمهورية، رافعة علم الثورة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ضد بروسيا حاملة راية الغزو والثورة المضادة» (٩ - ص ١٦٢).

يرى القارىء من هذه المقتبسات عن الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ - ١٨٧١ التفاعل الأصيل بين الدفاع عن الوطن في الحرب الوطنية العادلة وبين الثورة والصراع بين البروليتاريا الثورية الزائدة عن الوطن والبرجوازية الخائنة التي تخشى الثورة وتستسلم للعدو، لتشن الحرب الأهلية ضد الشعب المسلح.. وواضح من كلام ماركس ان «انتزاع قضية الدفاع من يد البرجوازية الخائنة» يتفق تماماً مع تطلع البروليتاريا لانتزاع السلطة السياسية، وليس العكس. وقد لخص ماركس العلاقة بين الدفاع عن الوطن والثورة وكيف يؤدي الأول إلى الثانية في تلك الحرب قائلاً: «ولكن تسليح باريس كان معناه تسليح الثورة. وانتصار باريس على المعتدي البروسي كان يعني انتصار العامل الفرنسي على الرأسمالي الفرنسي وطفيليي دولته. وحكومة الدفاع الوطني المضطرة للاختيار بين الواجب الوطني والمصالح الطبقية لم تتردد لحظة واحدة - لقد تحولت إلى حكومة الخيانة الوطنية» (٦ - ص ٢٤١) لقد خانت البرجوازية الفرنسية الوطن قبل قيام كومونة باريس ولمجرد الخوف من العمال المسلحين. فهل في هذا ما يبرر الموقف الانعزالي من الدفاع عن الوطن في الحرب الوطنية العادلة وترك قضية الدفاع عن الوطن بيد البرجوازية لوحدها؟ فبعد أن

استسلمت الحكومة البرجوازية للعدو وبدأت على الفور بنزع سلاح العمال الذين رفضوا تسليم سلاحهم عندئذٍ فقط، نشبت الحرب الأهلية وقامت كومونة باريس التي قال فيها لينين:

« أخذت البروليتاريا، التي ثارت ضد النظام القديم، على عاتقها مهمتين اثنتين: قومية عامة، وطبقية: مهمة تحرير فرنسا من غزو المانيا، والتحرير الاشتراكي للعمل من الرأسمالية. وفي توحيد هاتين المهمتين تكمن الميزة الأصلية تماماً للكومونة » (٩ ـ ص ١٧٣).

فما هي خلاصة التجربة التاريخية للحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١). وللكومونة.

ـ في الطور الأول كانت الحرب عادلة بالنسبة للألمان وظالمة بالنسبة لفرنسا فوقف ماركس على رأس الأممية الأولى إلى جانب الألمان ضد فرنسا.

ـ في الطور الثاني من الحرب تحولت إلى غزو المانيا لفرنسا فتحالفت الأممية وعلى رأسها ماركس ضد الغزاة الالمان.

ـ لم يدع ماركس العمال الفرنسيين إلى التخلي عن الدفاع عن الوطن في ظل الحكومة البرجوازية بل بالعكس دعاهم إلى تأدية واجبهم كمواطنين وتجنب الحرب الأهلية قبل الأوان ما دام العدو على أبواب باريس.

الحكومة البرجوازية هي التي خانت قضية الدفاع عن الوطن لتشن الحرب الأهلية ضد الطبقة العاملة المسلحة للدفاع عن الوطن. وبعد هذه الخيانة فقط استولت البروليتارية على السلطة في باريس.

لم يضع ماركس قضية مجيء البروليتاريا إلى سدة الحكم بالضد من قضية الدفاع عن الوطن بل بالعكس تماماً. فلو استطاع عمال باريس فرض انتخاب الكومونة في أوائل تشرين الثاني (١٨٧٠) في نفس الوقت مع المدن الأخرى لتسلمت الكومونات الثورية (سلف السوفيتيات التاريخي) السلطة السياسية في فرنسا ولانتزعت «قضية الدفاع من يد الخونة» أي لانتصرت الثورة البروليتارية، وفي الوقت ذاته لانتصرت قضية الدفاع عن الوطن ولتغير طابع الحرب إلى حرب اشتراكية أوروبية.

إن خيانة البرجوازية للقضية الوطنية ووجود جيش الاحتلال الأجنبي على أبواب العاصمة «الصدفة الحاسمة غير الملائمة» هي العوامل التي أحبطت الثورة والحرب الوطنية معاً. لم تقم كومونة باريس خلال معركة الدفاع عن الوطن بل بعدها، بعد خيانة الحكومة البرجوازية واستسلامها للعدو، أي بعكس ما يصوره خصوم الدفاع عن الوطن عندنا.

تميزت حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١ بتسليح البروليتاريا الباريسية وتعبئتها في تنظيمها العسكري الطبقي المستقل «الحرس الأهلي» وقادته المنتخبين وظبطه المستقل بالضد من الجيش الدائم الذي بقي خاضعاً للبرجوازية في حين كسبت البروليتاريا الروسية هذا الجيش في ١٩١٧ فانتصرت الثورة. والحال ان الجيش الفرنسي الدائم هو الذي سحق بمساعدة العدو كومونة باريس أي البروليتاريا المسلحة. وباختصار فإن حرب ١٨٧٠- ١٨٧١ لعبت لعبة مزدوجة ازاء الثورة فالغزو ساعد على تسليح العمال للدفاع عن باريس وبمعنى آخر تسليح الثورة العمالية وهذا هو الجانب الايجابي من علاقة الحرب بالثورة، ومن الجهة الأخرى فإن وجود العدو على أبواب العاصمة كان الجانب السلبي من العلاقة بين الظاهرتين أو كما قال ماركس

« الصدفة الحاسمة غير الملائمة » أما كاتبنا فقد كرس أكثر من صفحة ونصف عن العلاقة بين الحرب والثورة (١ ـ ص ٤٥ ـ ٤٧) دون أن يشير بكلمة إلى علاقة الحرب الوطنية العادلة على الخصوص بالثورة، جرياً على النهج التجريدي ومن الجدير بالتنويه موقف ماركس من الكومونة بالذات أي استعمال عمال باريس السلاح للاستيلاء على السلطة في ١٨ ـ ٣ ـ ١٨٧١ فهنا أيضاً لم يبدأ العمال الحرب الأهلية بل بدأتها البرجوازية التي عقدت صلحاً خيانياً مع الألمان لكي تستعين بهم على نزع سلاح العمال الفرنسيين إذ وضعتهم أمام الأمر الواقع فإما تسليم بسلاحهم بلا مقاومة وأما الدفاع عنه، وهكذا هزموا قوات الحكومة واستولوا على السلطة وفرت الحكومة إلى فرساي فقال ماركس رغم تحفظاته السابقة كلماته المأثورة ممجداً عمال باريس « لقد إقتحموا السماء ! فلو أنهم سلموا سلاحهم بلا مقاومة لكان التفسخ المعنوي أشد وبالاً على أجيالهم من أي خسارة من أرواح القادة ». وفي رسالته إلى صديقه د. كوغلمان نفسه توقع فشل الكومونة منذ أيامها الأولى لأنها التزمت الدفاع ولم تزحف على فرساي (٥ ـ ص ١٧٦).

وبصدد ثورة شباط ١٩١٧ البروسية حيث بقيت الحرب الامبريالية لأن الحكومة البرجوازية الجديدة لم تعلن شروط صلح ديمقراطي عادل للجميع ولأنها لم تنشر المعاهدات السرية بين روسيا وحلفائها فبقي لينين والبلاشفة ضد شعار « الدفاع عن الوطن ».

ولكن هذا جانب واحد من القضية. أما جانبها الآخر فأي تعديلات ادخلها لينين على الشعارات أو على التطبيق؟ كان أهم تعديل من وجهة نظر الجدال الدائر الان عندنا ما جاء بصدد شعار « هزيمة حكومة المتكلم

في الحرب الامبريالية» يقول غولب: «وفي ذلك الوضع التاريخي فإن الاندحار العسكري كان يمكن أن يؤدي إلى اندحار الثورة وبالتالي وكما كانت الحال مع كومونة باريس التي استطاع تيير سحقها بالتحالف مع بسمارك، فإن الحكومة البرجوازية بالتحالف مع الامبريالية الالمانية ـ ستكون في وضع يمكنها من سحق الثورة وعليه فإن مصالح البروليتاريا كانت تستلزم تغيير ذلك تماماً واتخاذ تاكتيك جديد» (٧ ـ ص ٣٣).

وعلى أساس هذا التاكتيك الجديد دعا البلاشفة الجنود إلى حماية الجبهة من خرق العدو لها. أي عملياً أن يدافعوا عن أرض الوطن، عن ريغا وبتروغراد العاصمة، وقد دافعوا عنها فعلاً بوجه الهجوم الألماني، وأن يمتنعوا فقط عن شن التعرض العام ضد العدو. وهكذا جرت معارك دفاعية عن الوطن في قلب الحرب الامبريالية العدوانية غير العادلة.

لقد انتصرت ثورة شباط وأسقط القيصر من دون حرب أهلية طويلة تعرض روسيا للاحتلال الأجنبي بفضل انحياز حامية بتروغراد العسكرية إلى جانب الثورة وصمود الجبهة بوجه الالمان. وعلى هذا المنوال أيضاً انتصرت ثورة أكتوبر. ولو تمكن العدو الخارجي من دخول بتروغراد لقطع رأس الثورة مقدماً. هكذا كانت العلاقة بين الثورة والحرب في الثورتين الروسيتين والحال كانت الحرب حرباً امبريالية غير عادلة حتى اكتوبر والاستنتاج التاريخي هو أن الاحتلال الأجنبي خلافاً لما تظنه بعض فئات المعارضة العراقية يعني احباط الثورة وليس العكس.

ولم تنشب الحرب الأهلية الطويلة بالارتباط مع الغزو الأجنبي لروسيا إلا بعد انتصار الثورة وخروج روسيا من الحرب بصلح منفرد مع الالمان

وقد بدأتها ، يعني الحرب الأهلية ، البرجوازية وليس البروليتاريا .

أما المثل الصيني فقد قاد الحزب الشيوعي الصيني حرب الأنصار ضد حكومة شيانغ كايشك الفاشية لمدة عشر سنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٧ ولم تتوقف الحرب الأهلية بين الجانبين إلا عندما غزت اليابان الصين وبمبادرة الحزب الشيوعي بالذات وانهمك الطرفان في الحرب الوطنية التحررية كحليفين ضد اليابان حتى استسلامها في أيلول ١٩٤٥ وإن تخللتها بعض المصادمات بين جيش التحرير والحكومة . ثم استؤنفت الحرب الأهلية حتى انهيار نظام الكومينتانغ الإقطاعي وقيام جمهورية الصين الشعبية .

وماذا كانت استراتيجية الحزب الشيوعي الصيني خلال الحرب ضد اليابان « التحالف مع القوى الوطنية كافة ومع عملاء امريكا وفرنسا وبريطانيا ضد اليابان وضد عملاء اليابان » بهذا الأسلوب البسيط والصارخ في التعبير كانوا يلخصون استراتيجيتهم في الدفاع عن الوطن . وهذا ما يعرفه من كان له أقل المام بتاريخ الثورة الصينية لكي يستشهد بها استشهاداً صحيحاً .

لقد تبنى الحزب الشيوعي الصيني قضية الدفاع عن الوطن ضد الغزو الياباني للصين باعتبارها قضيته بالذات ، ولم يكتف فقط بالتخلي مؤقتاً عن اسقاط حكومة جيانغ كايشيك - الدكتاتور الفاشي ، أو نظامه بل ذهب إلى حد الاعتراف به « كقائد عام أعلى » للحرب الوطنية الصينية ضد اليابان وقد كانت المساهمة الفعالة في حرب الدفاع عن الوطن الفرصة التاريخية التي مكنت الحزب الشيوعي من الاتصال بأوسع الجماهير ولا سيما

القوات المسلحة الصينية لتكوين الجيش الثوري، «جيش التحرير الشعبي» ـ الذي حرر الصين من نظام جيانغ كايشك الدكتاتور الفاشي بعد انتهاء حرب التحرر ضد اليابان.

فهل تعارضت الثورة الصينية مع الدفاع عن الوطن كما يوحي الكاتب في الملف أم بالعكس وعلى طرفي نقيض مما يقوله إذ أن انتصار حرب الدفاع عن الوطن هو الذي أدى إلى انتصار الثورة؟

أما المثل الفيتنامي فمن الغريب جداً ايراده بهذا الشأن. إذ أن فيتنام كانت مستعمرة فرنسية فغزتها اليابان في ١٩٤٢ فانهارت الادارة الفرنسية فنهض الوطنيون الفيتناميون والتقطوا السلاح الذي تركه الاستعماريون الفرنسيون ليدافعوا عن أرض الوطن ضد الغزاة الجدد ثم الفرنسيين العائدين ثم ضد الأميركان المتدخلين وحتى النصر التام. وقد سارت حرب التحرر الوطني من بدايتها حتى نهايتها وفي جميع مراحلها بقيادة الحزب الشيوعي الفيتنامي وفي اطار الجبهة الوطنية وهي التي أدت إلى اقامة سلطة البروليتاريا آخر الأمر. فهل في هذا ما يتنافى مع الدفاع عن الوطن باي وجه من الوجوه كما يوحي الكاتب المشار إليه بهذا الاستشهاد؟!.

أما الثورات التي «لا تزال في رحم التاريخ» والتي يستشهد بها الكاتب لانها تتعارض مع الدفاع عن الوطن وتبرر الحرب الأهلية بالضد من الدفاع عن الوطن فنتركها لعلام الغيوب..

ترى هل يعرف التاريخ ثورة عظيمة واحدة لم تقترن بحرب الدفاع عن الوطن سواء سبقتها أم تلتها أم اندمجت بها معاً؟. علماً بأن المقصود بالثورة العظيمة هو الثورة الشعبية أي التي تصنعها الملايين، قلّما يسجل

التاريخ ذلك فمثلاً عندما تنحاز القوات المسلحة إلى الشعب جلّها إن لم يكن كلها، بحيث لا تدع مجالاً للتدخل الأجنبي، وعندما يكون البلد المعني في كنف الاتحاد السوفييتي ـ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق.

١ ـ تاكتيك تحويل الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية:

لا تختلف الماركسية اللينينية عن الانتهازية الشوفينية والفوضوية والمسالمة البرجوازية في موقفها من الحرب من حيث المبدأ فقط كما جرى بحثه بل تختلف عنها بالطبع في التاكتيك أيضاً. فالبلاشفة الروس لم يرفضوا الحرب الامبريالية بالامتناع عن حمل السلاح والتدريب في القتال أو دعوة العناصر الثورية إلى ترك الجبهة أو معسكرات التدريب القسري وما إلى ذلك من المواقف السلبية بل على العكس من ذلك كما سنرى، أما تاكتيك البلاشفة في تحويل الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية فكان كما صاغه لينين: « وهنا بالذات يقول يوليوس، بكل صواب، إنه يستحيل « صنع الثورة ». لقد وردت الثورة في جدول الأعمال في سنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٦. كامنة في أحشاء الحرب، منبثقة من الحرب، وكان ينبغي « اعلان » ذلك باسم الطبقة الثورية، والإشارة إلى النهاية وبلا خوف. إن برنامجها: ـ الاشتراكية مستحيلة في عهد الحرب بدون الحرب الأهلية ضد البرجوازية المغرقة في الرجعية المجرمة التي تتسبب للشعب ببلايا تفوق الوصف.

« وكان ينبغي التفكير في أعمال منتظمة دائبة منسجمة عملية قابلة للتحقيق بلا ريب اياً كانت وتيرة تطور الأزمة الثورية، ومتطابقة مع خط الثورة بسبيل النضوج. وهذه الأعمال ينص عليها قرار حزبنا:

١ ـ التصويت ضد الاعتمادات؛

٢ ـ نسف (السلام الأهلي)؛
٣ ـ تأسيس منظمة لا شرعية؛
٤ ـ التآخي بين الجنود؛
٥ ـ دعم جميع الأعمال الثورية التي تقوم بها الجماهير؛ إن نجاح جميع هذه الخطوات يؤدي بصورة لا مناص منها إلى الحرب الأهلية» (٢ ـ ص ٦٤).

ويلاحظ القارىء أن الثورة لا تصنع أي لا تفتعل بل تأتي تلقائياً «كامنة في أحشاء الحرب منبثقة من الحرب» اجتماع الضدين! وعلى الحزب الطليعي أن يصوغ التاكتيك المناسب للوضع «لوتيرة تطور الأزمة الثورية» والمتطابقة «مع خط الثورة بسبب النضوج» ولا يمكن استنتاج تاكتيك مناسب لحرب عدوانية في دولة امبريالية حرفياً من دون تمحيص لتطبيقه على حرب وطنية عادلة في دولة وطنية. ومع أخذ هذه الفوارق بنظر الاعتبار يمكن ويجب الافادة من دروس التاريخ ومن تجارب الأمم الأخرى، دون الحاجة، إلى «اختراع البارود من جديد» لما ينطوي عليه هذا من تضحيات لا مبرر لها بل مهلكة أحياناً. وإلا فماذا يبقى من الدور المرشد للنظرية؟ ففي الحرب العادلة لا يمكن «نسف السلام الأهلي» أي إثارة الحرب الأهلية أو التصويت ضد الاعتمادات بينما يتعرض استقلال البلاد للخطر.

لنر إلى تاكتيك لينين في الحروب غير العادلة، الامبريالية والفرق بينه وبين التاكتيك الفوضوي والبرجوازي الصغير المسالم في الموقف من حمل السلاح والتدريب على القتال والخ.. يقول لينين: ـ «فإن البرجوازية الامبريالية لا تعسكر الشعب بأسره وحسب، بل تعسكر الشباب أيضاً وغداً ستشرع أغلب الظن في عسكرة النساء أيضاً. وفي هذا الصدد يجب

أن نقول: هذا أفضل إلى الأمام بمزيد من السرعة. وكلما أسرعنا كلما اقتربنا من الانتفاضة المباحة ضد الرأسمالية: فكيف يستطيع الاشتراكيون الديمقراطيون أن يدعوا الخوف يتملكهم من جراء عسكرة الشباب، وما إلى ذلك، إذا لم ينسوا مثال الكومونة!» (٢ ـ ص ٩٢).

قارن هذا بصراخ المعارضة العراقية ضد تجنيد الشباب ولا سيما الطلبة والنساء في المجهود الحربي وفي حرب الدفاع عن الوطن اليوم... ويستشهد لينين بأحد مراقبي الكومونة الانكليز الذي قال «لو أن الأمة الفرنسية كانت مؤلفة من النساء فقط فأي أمة رهيبة كانت!» ويضيف إليه قوله «فإن النساء والأولاد في الثالثة عشرة من العمر فما فوق قد ناضلوا أثناء الكومونة إلى جانب الرجال، ولا يمكن أن يكون الحال آخر في المعارك المقبلة أيضاً من أجل اسقاط البرجوازية المسلحة تسليحاً جيداً. فالبروليتاريات لن ينظرن بلا مبالاة إلى البرجوازية كيف تقتل رمياً بالرصاص العمال المسلحين تسليحاً سيئاً أو العزل من السلاح. بل سيأخذن السلاح كما في عام ١٨٧١ ومن الأمم المذعورة الحالية ـ والأصح القول: من الحركة العمالية الحالية التي يشوشها الانتهازيون أكثر مما تشوشها الحكومات ـ سينشأ بلا ريب، عاجلاً أم آجلاً ولكن بصورة أكيدة تماماً تحالف أممي بين الأمم الرحيبة «للبروليتاريا الثورة» (٢ ـ ص ١٣).

وهذا ما تفعله الحرب الدائرة الآن في العراق حيث دربت ١٠٠,٠٠٠ طالب في الصيف الماضي فقط وقد زج بمليون إمرأة عراقية في المجهود الحربي بعد انتزاعهن من عمل المطبخ الذي يستعبدهن ويبلدهن إلى العمل الاجتماعي الذي يحررهن من العبوديات القديمة. والآن بدأ تواً تدريب النساء على السلاح..

هكذا يعمل في العراق اليوم « المحرك التـاريخي خـارق القـوة » أي الحرب كما وصفها لينين في « رسائل من بعيد » وسط صيحات الاحتجاج من المعارضة، هكذا تعد الحرب الدائرة الرحى الآن: « أمة ثورية رهيبة » من النساء البروليتاريات والشباب. هكذا تخدم الحرب نقيضها ـ الثورة ـ دون أن تصغي إلى دوي الاحتجاج الانعزالي. وتنجز في بضع سنوات مـا لم ينجز خلال عشرات السنين من التطور « السلمي » أو من « التنمية الانفجارية ».

وفي الحرب الامبرياليـة العـدوانيـة قـال لينين على لسـان الامهـات البروليتاريات يخاطبن أبناءهن: « عما قريب ستكبر، وسيعطونك بندقية. فخذها وتعلم الشؤون الحربية جيداً هذا العلم ضروري لأجل البروليتـاريين لا لكي تطلق النار على اخوانك، عمال البلدان الأخرى كما يجري في الحرب الحالية وكما سينصحك بفعله خونة الاشتراكية ـ بل لكي تناضل ضد برجوازية بلدك بالذات، لكي تضع حداً للاستثمار والفقر والحروب لا عن طريق التمنيات الطيبة بل عن طريق الانتصار على البرجوازية وتجريدها من السلاح.. وإذا امتنع المرء عن القيام بهذه الدعاية وعلى وجه الضبط هذه الدعاية لمناسبة الحرب الحالية، فمن الأفضل الامتناع كلياً عن التشدق بالكلمات الكبيرة عن الاشتراكية الديمقراطية الثورية العالمية، وعن الثورة الاشتراكية وعن الحرب ضد الحرب » (٢ ـ ص ٩٣).

هذا ما كان يدعو له لينين حتى في الحروب غير العادلة (الامبريالية) أما الدعاية الانعزالية الآن فتدعو الطلاب في العراق، الذي يخوض حرباً دفاعية غير امبريالية، إلى رفض « التدريب العسكري »، وتدعو النسوة إلى رفض التدريب بل وتدعوهم إلى شق الجيوب ولطم الخدود ولبس السواد « على عناد صدام ».

الحرب والثورة ظاهرتان لا ترتبطان الواحدة بالأخرى ارتباطاً قدرياً بيد أنها ليستا ظاهرتين متحاجبتين لا تتفاعلان. وما أن تقع الحرب حتى تتفاعل وتترابط بالثورة بألف وشيجة ووشيجة. وعندما وقعت الحرب العراقية الايرانية بغزو العراق لايران ساعدت على انتكاس الثورة الايرانية «كصدفة خارجية غير ملائمة» على حد تعبير ماركس وقد عمق هذا الانتكاس أكثر غزو ايران للعراق بدوره.

وإذا انتصرت ايران في هذا الغزو فيسؤدي ذلك ليس فقط إلى احباط الثورة العراقية المرتقبة بل سيطيل أيضاً فترة انتكاس الثورة الايرانية. وبالعكس فإن صمود الدفاع الوطني العراقي سيعجل نضوج الثورتين معاً وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

لقد كتب الأكاديمي السوفياتي المعروف بوريس بونماريوف مقالاً في (قضايا السلم والاشتراكية) بمناسبة الذكرى الأربعين للانتصار على الفاشية، قال فيه إن الحروب العدوانية التي شنت في القرن العشرين جاءت على العموم بنتائج معاكسة لرغبات من أشعلها وهكذا كانت نتائج الغزو العراقي لايران وهكذا نأمل أن تكون نتائج الغزو الايراني للعراق ولا سيما إذا عرفت المعارضة كيف تعالج الانعزالية في صفوفها.

تخدم الحرب الثورة من حيث لا يدري مشعلوها ولا يريدون. فإنها تكشف عورات النظام الاجتماعي التناحري بابشع صورها وتفتح عيون الجماهير وتشبع الجماهير بالارهاب حتى لا تعود تخشاه وتسلح الجماهير وتدربها على القتال وهذا ما يشجعها على الثورة.

وللحرب ايضاً سمومها، منتجاتها الثانوية. فالهزيمة وفرض شروط

صلح جائر تجرح كرامة الأمة وتتركها فريسة سهلة للانتقاميين كما فعل صلح فرساي بالمانيا بعد الحرب العالمية الأولى فاستغل هتلر العزة القومية الالمانية الجريحة لفرض نظامه الفاشي وشن الحرب العالمية الثانية، بعد أن فشلت الطبقة العاملة الالمانية في تحقيق ثورتها. ومن منتجات الحرب الثانوية خلق نوع خاص من الضباط من بين الجنود وضباط الصف والضباط من طراز هتلر وموسوليني.

فالحرب ليست الطريق المضمون والأفضل المؤدي إلى الثورة بأي حال من الأحوال فضلاً عما تسببه من الضحايا البشرية التي لا تعوض ومن خراب للقوى المنتجة والقيم الحضارية.

٢ ـ الحرب العراقية الايرانية والثورة

إن الشعب العراقي صامد بوجه الغزو الايراني منذ أربع سنوات ونصف السنة ـ دفاعا عن سيادته الوطنية ـ وقد أحبط خلالها العشرات من الهجمات الاستراتيجية الكبيرة وإذ خسر بعض الاجزاء الثمينة من أرضه فقد حافظ على الجبهة الدفاعية عموماً ضد الاختراق بيد أنه بأمس الحاجة إلى نهضة سياسية وروحية شاملة تمكنه من مواصلة الدفاع الصامد بوجه الغزو المتفاقم فضلاً عن تحرير الأجزاء المفقودة من ارض الوطن وشل هذه النهضة السياسية والروحية غير ممكنة التحقيق في ظل الدكتاتورية الراهنة المعادية للديمقراطية بل لا يمكن تحقيقه إلا في ظل التجديد السياسي والروحي الذي يمكن تحقيقه على يد الحكومة الوطنية الديمقراطية الائتلافية. ولكن الحرب خلقت وضعاً متأزماً فالحكومة التي تتبنى الآن قضية الدفاع عن الوطن لا تستطيع كلا بل لا تريد، التجديد السياسي والروحي وبالتالي الحماسة الثورية الضرورية لاستنهاض

الطبقات المظلومة للدفاع العادل والظافر عن الوطن هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى المعارضة لا تريد ذلك لأنها غير مقتنعة بالدفاع عن الوطن في ظل الحكومة القائمة والحال أنها لا تستطيع اسقاط هذه الحكومة، بل تجد نفسها في عزلة عن الجماهير الدفاعية الصامدة بوجه الغزو الايراني وهذا ما يتيح الفرصة للحكومة لانزال أقسى الضربات بها مستغلة رفضها للحرب الدفاعية فتزداد الهوة عمقاً بين الطرفين ويزداد الخطر الخارجي تفاقماً.

ولحل هذه الأزمة لا بد من مبادرة أحد الطرفين.

إن الدكتاتورية الراهنة هي التي بالأساس دفعت بقوى المعارضة دفعاً الواحدة بعد الأخرى إلى المعارضة وامتشاق السلاح بعد أن سدت بوجهها جميع السبل الشرعية للاحتجاج أو التعبير عن الرأي تحت طائلة الارهاب الدموي، وأحرقت دونها جميع الجسور..

وبعد كارثة المحمرة، في ربيع ١٩٨٢، قامت الحكومة بعملية جس نبض قيادات المعارضة لاستدراجها من جديد إلى وفاق لا يكلفها أي تنازل جدي على حساب احتكارها السلطة السياسية في الدولة والقيادة المطلقة غير المنازع عليها في المجتمع والدولة. ولم تعرض أية تنازلات من جانبها وبدلاً من أن تعلن حكومة صدام حسين على الملأ إعادة الحريات السياسية فعلياً لجميع القوى الوطنية التي يهمها الدفاع عن الوطن اكتفى نائب رئيس الحكومة طه رمضان بدعوة المعارضة إلى المساهمة في الدفاع عن الوطن «بصرف النظر عن خلافاتهم مع البعث». وكان رد

الفعل من جانب المعارضة سلبياً باستثناء قيادة « الاتحاد الوطني الكردستاني » « الطلباني الذي كان يساوره أمل أشعب في أن يحصل من الحكومة على نفس التنازلات التي حصل عليها البارزاني في اتفاق ١١ / آذار / ١٩٧٠ دون أن يأخذ بالحسبان موازين القوى ولا سيما بعد أن انشق على صف المعارضة وأنزل بها أقوى ضربة عسكرية في معارك بشت آشان سنة ١٩٨٣. وبعد ذلك أصيب بخذلان سياسي مبين إذ لم يحصل على شيء من الحكومة فشق عليها عصا الطاعة مجدداً وارتمى مؤخراً في أحضان العدو الايراني، أسوة بالزعماء القوميين الاكراد) المعارضين الآخرين.

ولم يكن الاذلال الذي عاملته به الحكومة مشجعاً لغيره، بل عمق الهوة بين الحكومة والمعارضة وعمق الموقف الانعزالي السلبي للمعارضة من القضية الرئيسية قضية الدفاع عن الوطن بالتمادي في صب جام غضبها على الجيش العراقي المنهمك في الدفاع عن الوطن وفي عزل نفسها عن الجماهير الدفاعية على العموم.

ومن غير المتوقع أن تبادر قيادة صدام حسين نفسها إلى اجراء تنازلات على حساب احتكارها للسلطة أو إلى اطلاق الحريات السياسية لتجميع القوى الوطنية ضد الغزو والاحتلال ما لم تصب بنكسة خطيرة تهدد وجودها بالذات كبرجوازية قومية في سدة الحكم، وربما يأتي هذا بعد فوات الأوان.

وفي هذا الشأن تتحمل القوى المعارضة الثورية الواعية مسؤولية استثنائية، مسؤولية المبادرة السياسية في هذا المنعطف التاريخي لمصائر

الشعب العراقي. بأن تبادر إلى تبني قضية الدفاع عن الوطن باعتبارها قضيتها هي بالذات، لا باعتبارها ورقة للمساومة مع الدكتاتور أو «للانضواء تحت جناحه». بل لكسر العزلة المضروبة بين المعارضة والجماهير الدفاعية. ولتنتزع من الحكومة احتكار زمام المبادرة السياسية الذي تحتكره لوحدها الآن، أو على الأقل تنازعها على هذا الزمام ولتفرض عليها تلك الحرية السياسية أو بالأحرى «التجديد السياسي والروحي» كما يقول لينين: (٢ - ص ١٣٨) الذي بدونه لا يمكن استنهاض تلك الحماسة والبطولة الجماهيريتين اللتين بدونهما يبقى الدفاع الظافر عن الوطن بعيد المنال وعلى هذا المآل لا يتوقف الآن فقط المستقبل الديمقراطي بل مصير الاستقلال الوطني أيضاً فضلاً عن مصير ووجود القوات الثورية في كردستان التي أصبحت رهينة بيد العدو.

هذا هو الطريق الآن لتغيير الحكومة في ظروف الغزو الأجنبي الجاثم على أرض الوطن وطريق المساومة مع البرجوازية القومية التي لم تخن الوطن بعد وليست على وشك الخيانة بل لا تزال تقود لوحدها قضية الدفاع عن الوطن، وما دامت تتبنى هذه القضية. ففي الحرب ضد المانيا الهتلرية واليابان جرى العديد من هذه المساومات ضد الغزو الأجنبي. فهي ليست «بدعة ولا ضلالة» وما على الثوريين الواعين إلا أن يذكروا الحقيقة البسيطة التالية: وهي أن القوى الثورية القادرة على اسقاط الدكتاتورية رأساً لا تزال ضمن الجيش متشابكة في صراع مصيري مع الغزاة الأجانب تشابكاً لا انفكاك له. وما دامت الدكتاتورية «تدجل» بشعار الدفاع عن الوطن فلا خوف عليها من الانقلابات. ما دام الخطر الأجنبي جاثياً على أرض الوطن وخطر خرق الجبهة قائماً.

وبصرف النظر عما يأتي به الغد فإن من يقف اليوم بمعزل عن الجماهير الدفاعية لن يستطيع قيادتها غداً. إذ أنه يكون قد فقد ثقتها به. ولذا تقوم الحكومة الآن بحملة تشهير في أجهزتها الاعلامية الجماهيرية ضد القيادات القومية الكردية لتعاونها مع الايرانيين في ضرب مؤخرة الجيش وأنبوب النفط إلى تركيا وحقل النفط في كركوك وهو أضخم مورد رزق للعراقيين ودعامة للدفاع الوطني وبذلك تعمل على عزلها أكثر بين الجماهير بعد أن كانت تلوذ بالصمت المطبق عن تحركات المعارضة المسلحة.

إن الجماهير الكردية تعرف بسليقتها الثورية، خيراً من الزعماء كافة أن مستقبلها القومي مرهون بنتيجة كفاح الشعب العراقي على العموم من أجل صيانة استقلال العراق وسيادته الوطنية وسلامة أرضه من الاقتسام بين القوى الشوفينية الايرانية والتركية التي هي شر من الدكتاتورية العراقية الراهنة. إن الجماهير الكردية لا يمكن أن تثق بحكمة القيادة التي جرت نيران الحرب إلى قلب كردستان بالتنسيق مع القوات الايرانية لتعطى الذريعة بيد الطغمة الفاشية لتدمر المدن والقرى الكردية وتبيد سكانها الآمنين.

إن الموقف السائد في صف المعارضة هو الموقف السلبي من قضية الدفاع عن الوطن الآن ـ في ظل الحكومة القائمة ـ مع فارق جزئي وهو ان فريقاً من المعارضة يرى ان استمرار الحرب هو الفرصة الوحيدة لتغيير الحكومة في حين أن فريقاً آخر لا يرى هذا الرأي دون أن يلتزم ـ بعمل شيء في سبيل إنهاء الحرب في ظل الحكومة القائمة والنتيجة واحدة هي: دع الحرب تدور في مجراها مع العمل على دعوة الجماهير لرفض الدفاع عن الوطن في ظل الحكومة القائمة. ولو نجحت هذه الدعوة « لا سمح الله » لما كان لها إلا

نتيجة واحدة: استسلام العراق بلا قيد ولا شرط للغزو الايراني والاحتلال الايراني أو الايراني التركي.

لقد وقعت الحرب رغم ارادتنا، وتستمر بصرف النظر عن ارادتنا، ولم يعد بمقدور العراق لوحده وقف الحرب بالرغم من اجماع الشعب والحكومة على انهائها. والحرب تدور للسنة السابعة على التوالي وقد غدت حرباً دفاعية سياسياً وعسكرياً من جانب العراق للسنة الخامسة على التوالي وأزهقت مئات الألوف من الأرواح وعوقت مئات الألوف وتقتل وتمزق شمل العوائل ودمرت قوى منتجة هائلة.. إلخ من الويلات والتي يعجز القلم عن وصفها. وهذا الجانب السلبي معروف للجميع بيد أن ظاهرة الحرب لها جانب آخر، من ناحية علاقتها بالثورة بالذات «إن الحرب محك تاريخي خارق القوة» بهذه العبارة الوجيزة لخص لينين عالماً من العلاقات بين الظاهرتين المتباينتين: الحرب والثورة.

لنر كيف انعكس هذا القانون التاريخي في العراق والجماهير الهامدة سياسياً قبل الحرب تعمل الحكومة على تحريكها كلما طال أمد الحرب وتحثها على الكفاح المسلح ضد الغزو فتجرها جراً إلى أصعب أشكال النشاط السياسي، وتضطر إلى تسليحها بأحدث سلاح وتدريبها في القتال، وتجنيد جميع القادرين على حمل السلاح، وتخلق جيش الثورة دون أن تريد. إن المليون مقاتل اليوم في العراق ليسوا مجرد زيادة عددية لأفراد القوات المسلحة فالكم هنا يتحول إلى الكيف.

٣ ـ الجيش:

لقد تطور الجيش العراقي خلال الحرب كماً وكيفاً فلم يعد لدينا

(جيش عقائدي) كما كان يزعم النظام ولا هو «جيش مرتزقة» كما يزعم العدو ولا هو «كجيش هتلر» كما يزعم بعض الانعزاليين، ولم يعد مجرد «مؤسسة عسكرية معزولة عن الشعب ومعبأة على قدم الاستعداد لقمع الشعب» كما يزعم الانعزاليون على العموم سواء كانت على اليسار أو اليمين. لدينا الآن «شعب مسلح» ومعبأ للقتال دفاعاً عن الوطن ومنهمك في هذا الدفاع.. هكذا عملت الحرب، يعني الغزو الايراني!

صحيح ان القوات المسلحة وجدت في كل نظام اجتماعي للدفاع عن النظام ذاته، بيد أنها عندما تضم جل الرجال القادرين في الحرب المصيرية دفاعاً عن الوطن تكتسب هذه القوات صفة جديدة أخرى جانباً آخر، الدفاع عن الوطن، وتصبح ذات جانبين وليس مجرد أداة بيد الطبقة الحاكمة لاخضاع الطبقات المظلومة وقمع خصومها السياسيين، فأي الجانبين يتغلب في اللحظة المعينة هو الذي يقرر مصير الحرب أو الثورة. فلتقوية أي من هذين الجانبين وجهت قوى المعارضة اهتمامها في السنوات الأخيرة؟ وجه معظمها اهتمامه الرئيسي لإضعاف الجانب الوطني للقوات المسلحة جراء موقفه السلبي من قضية الدفاع عن الوطن بقيادة الحكومة القائمة. وبذلك عزلت نفسها عن الاحتياط الرئيسي للثورة فمكنت الحكومة من استخدام القوات المسلحة بالذات لانزال ضربات قاسية بربرية فاشية وبالتالي انعاش روح القمع بين القوات المسلحة.. إن الحرب الأهلية أشد قسوة وهولاً من أية حرب بين الأمم (لينين) فكيف الأمر مع حرب أهلية تجري في آخشاب حرب وطنية ضد غزو خارجي؟

شتان بين جيش امبريالي شوفيني فاشي وبين جيش وطني يمارس لخمس سنوات متوالية مهمة الدفاع عن الوطن باعتبارها مهمته الأساسية

والرئيسية. وعلى هذا الجانب الرئيسي والمشرق كان يجب أن تعول قوى المعارضة. وبدلاً من رشق الجيش بالرصاص كان يجب رشقه بالشعارات السياسية الوطنية والديمقراطية. ولو فعلت ذلك لكان من الصعب على الدكتاتورية استخدام القوات المسلحة كأداة للقمع البوليسي الداخلي، وبذلك كانت تخدم قضية الدفاع عن الوطن وقضية الثورة معاً.

إن وضع المعارضة على العموم يزداد حراجة يوماً بعد يوم جراء احتدام الصراع بين الطرفين المتحاربين، بين قضية الدفاع عن الوطن والغزو الايراني. الأمر الذي يستحيل معه أي موقف وسطي لأي قوة وطنية ويستحيل معه الوقوف بمعزل عن حرب الدفاع عن الوطن دون صب الماء في طاحونة الغزاة المحتلين بصرف النظر عن جميع النوايا الحسنة في الوجود.

ولا يمكن للمعارضة أن تختار محنتها الا بتبني الدفاع عن الوطن وهذا يتطلب أولاً وقبل كل شيء التحرر من عقدة الخوف من أن يضيع تبني شعار الدفاع عن الوطن ليس فقط « الطبقة العاملة والكادحين عموماً، بل طليعة هذه الطبقة أيضاً، تحت جناح الدكتاتورية الفاشية البرجوازية الحاكمة » (١ ـ ص ٥٣) أو أن يطيل عمر الدكتاتورية. إذ أن الأمر على العكس فإن شعار « الدفاع عن الوطن » هو مفتاح الوضع كله، هو الذي يكسر طرق العزلة الذي يعزل المعارضة عن الجماهير الدفاعية ولا سيما القوات المسلحة او « الشعب القادر » ولا يضع الطبقة العاملة وماليتها تحت جناح الدكتاتورية بل بالعكس تماماً إذ أنه ينازعها على زمام المبادرة والقيادة السياسية لقضية الدفاع عن الوطن.

إن قوة المعارضة الآن لا تقاس بقوتها العسكرية الضئيلة بالقياس إلى

القوات المسلحة للدولة، ربما بنسبة واحدة بالمائة، إنما تقاس بالدور السياسي والمعنوي الذي سوف تلعبه في استنهاض البطولات الجماهيرية التي لا يمكن بدونها الصمود بوجه الغزو طويلاً، فضلاً عن رده على أعقابه وتحرير الأجزاء الثمينة التي يحتلها من أرض الوطن. وعن هذا الطريق فقط يمكن للمعارضة أن تلعب دورها المؤثر في حياة البلاد السياسية وأن تنتزع الحريات السياسية وأن تكسر احتكار السلطة السياسية من قبل الدكتاتورية الراهنة ليس عن طريق الكفاح المسلح ضد القوات المسلحة بل بالاشتراك معها في الدفاع عن الوطن الواحد والنضال السياسي ضد الدكتاتورية..

إن المعارضة تضيع الفرصة التاريخية للدفاع عن الوطن والثورة بانتظار الفرص.

الفصل الرابع

الدفاع الوطني والثورة
قضايا استراتيجية وتاكتيكية

١ ـ الاستراتيجية العالمية والوطنية

يشتمل الخط السياسي، أي الاتجاه العام للخط السياسي لحزب الطبقة العاملة على الهدف الذي تضعه الحركة العمالية، في مرحلة معينة من تطورها وعلى الوسائل الاساسية (نظام التحالفات الطبقية) لتحقيقه. انه بمثابة خطة سياسية (يدعونها احياناً خطة استراتيجية) تحدد اتجاه الضربة الرئيسية، والعدو الطبقي الرئيس وحلفاء البروليتاريا الاساسيين والموقف من القوى الوسطية والاحتياطات غير المباشرة للثورة (١٥ ـ ص ٢٢ ـ ٢٣).

فالاستراتيجية السياسية هي الخطة العامة لتحقيق اهداف البرنامج (الديمقراطي أو الاشتراكي) وتمر بمراحل كمرحلة الاستقلال الوطني والمرحلة الوطنية الديمقراطية ذات الافق الاشتراكي ومرحلة التحولات الاشتراكية الكبرى.. وهلمجرا. فيمكن القول أن الاستراتيجية هي مستلزمات تحقيق البرنامج، وتتعلق بنسبة القوى الاجتماعية والسياسية بعضها إلى بعض التي يولدها التطور الاجتماعي الاقتصادي والنشاط السياسي الواعي لطلائع الطبقات الإجتماعية في البلد المعني. وليس فقط في البلد المعني وحده بل في منظومات البلدان التي ينتمي إليها وفي العالم على

العموم. (ويرتبط التاكتيك بالاستراتيجي ارتباطاً لا ينفصمَ ويختص بصور النضال والتنظيم لتحقيق الاستراتيجي).

وحتى في ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى كان الوضع الدولي المنطلق لتحقيق استراتيجية الثورة. فلولا انقسام الدول الرأسمالية الكبرى إلى كتلتين واشتباكها في صراع «الحياة أو الموت» أي صراع مصيري لما عاشت الثورة، بل لما جرى الاستيلاء على السلطة. في ٢٣ تشرين الأول/١٩١٧ أي قبل الثورة باسبوعين انعقدت اللجنة المركزية للحزب بقيادة لينين وقررت القيام بالانتفاضة المسلحة وكان منطلقها الوضع الدولي قبل كل شيء: «إن الانتفاضة المعادية للحرب في الاسطول الالماني كانت برهاناً على نمو الثورة الاشتراكية العالمية في ارجاء اوربا. والحال يوجد من الناحية الاخرى خطر عقد صفقة بين الامبرياليين لخنق الثورة في روسيا» (١٨ـ ص) فالاستيلاء على السلطة في الوقت المناسب ـ ما دام الامبرياليون متورطين في الصراع فيما بينهم وقبل أن يتفقوا على خنق الثورة ـ هو الذي انقذ الثورة الروسية وافسح في المجال لتوطيدها وبناء الاشتراكية وتحويل الاتحاد السوفيتي إلى قاعدة لبناء الاشتراكية في البلدان التي انتصرت فيها الثورة فيما بعد.

وكانت الحرب العالمية الثانية المرة الأخيرة التي اشتبكت فيها الدول الامبريالية في صراع حياة أو موت فيما بينها واضطر أحد الطرفين المتحاربين وهو الطرف الذي تسود فيه الديمقراطية البرجوازية إلى التحالف مع الاتحاد السوفيتي ضد الحلف الفاشي. وقد أدى الدور الرئيس الذي اضطلع به الاتحاد السوفيتي في الحرب التحررية إلى انهيار المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية وإلى انتصار الثورة بالتالي في الصين والهند الصينية واوربا الشرقية والوسطى. وبمساعدة الاتحاد السوفيتي

بنت هذه البلدان المجتمعات الاشتراكية وتكونت في العالم منظومة اشتراكية عالمية على ربع مساحة الأرض وتضم ثلاث اعشار سكانها. كما أن انهيار الفاشية الدولية أدى إلى انهيار النظام الكولونيالي القديم وقيام حوالي ١٠٠ دولة مستقلة جديدة. وغدا بامكان أي شعب في هذه الدول، يريد أن يتجنب السير في طريق التطور الرأسمالي ويختار السير في الاتجاه الاشتراكي من التطور، أن يعتمد على الدعم الكامل الجوانب من المنظومة الاشتراكية العالمية.

واصبح الوضع العالمي ملائماً لانتصار الثورة حتى في جوار الولايات المتحدة حصن الامبريالية الرئيس، شرط أن تحشد الثورة أكثرية الشعب الساحقة ضد العدو المعزول شعبياً كما جرى في كوبا ونيكاراغوا، وأن يتسنى للمنظومة الاشتراكية دعمها. كما أن عدداً من الثورات تعقدت ودخلت مأزقاً حرجاً أومنيت بالفشل أما جراء التدخل الامبريالي المباشر وعدم استطاعة المنظومة الاشتراكية تقديم الدعم المناسب أو لعدم مساندة الأكثرية الساحقة من الشعب للثورة أو لكل هذه الاسباب جميعاً: كما جرى في اليونان وافغانستان و.. الخ ويلقي الانعزاليون اليساريون اللوم في الفشل على المنظومة الاشتراكية وبالتحديد على الإتحاد السوفيتي بذريعة انه لم يقدم الدعم الكافي متجاهلين أو جاهلين عزلتهم عن اكثرية شعبهم غير المقتنعة بعد بضرورة الثورة. قال انجلس في مقدمته لطبعة ١٩٠٥ لكتاب ماركس «نضال الطبقات في فرنسا ١٨٤٨ - ١٨٥٠»: «وقد ولى زمان الهجمات المفاجئة، وزمن الثورات التي تقوم بها اقلية واعية ضئيلة تترأس الجماهير غير الواعية. وحيث يكون المقصود تحويل النظام الاجتماعي تحويلاً تاماً، ينبغي على الجماهير بالذات أن تشترك في هذا، ينبغي عليها بالذات أن تدرك الهدف الذي يدور النضال من أجله،

الهدف الذي تهرق دماءها وتضحي بحياتها من أجله. وهذا ما علمنا اياه تاريخ السنوات الخمسين الاخيرة. ولكنه لا بد من عمل مرير دائب لكي تفهم الجماهير ما يجب فعله، وهذا العمل هو على وجه الضبط هو ما نقوم به الان، ونقوم به بنجاح يدفع خصومنا إلى احضان اليأس والقنوط» (١٩- ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

وبعد تسعين سنة ونيف غدت كلمات انجلس هذه ابلغ دلالة في عالمنا اليوم إذ ترتبط الثورة الوطنية، يعني الثورة في قطر معين بالف وشيجة ووشيجة بقضية السلام العالمي وتخضع لها كجزء من كل ويجب تمييز ثلاث مراحل في التاريخ العالمي بهذا الصدد:

أولاً - مرحلة الرأسمالية الحرة في القرن التاسع عشر إذ رأى ماركس وانجلس أن الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تنتصر إلا إذا كانت عالمية أي إذا شملت البلدان الرأسمالية المتطورة في اوربا ولم تكن خارج اوربا عهد ذاك دولة رأسمالية يعتد بها.

ثانياً - مرحلة القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية، مرحلة الامبريالية والحروب الامبريالية إذ ارتأى لينين أن الثورة يمكن أن تنتصر في بضعة بلدان أو في بلد واحد.

ثالثاً - المرحلة العالمية الجارية مرحلة النظامين العالميين المتكافئين استراتيجيا: الاشتراكي والرأسمالي - وهي موضوع بحثنا، ونعني خضوع الثورة في القطر المعني لقضية السلام العالمي: وهذا ناجم من طبيعة عصرنا - عصر الذرة والفضاء الكوني والخطر على البيئة والثورة العلمية والتكنولوجية.

فنحن اليوم نعيش في عالم واحد متكامل ومتواكل ومتناقض في آن واحد ولم تعد الثورة في هذه المرحلة من التاريخ العالمي مرتبطة في قيامها كما كانت في المرحلة الثانية بالحروب الامبريالية، أو بالحرب بين النظامين العالميين المتناقضين: الاشتراكي والرأسمالي فمثل هـذه الحروب اصبحـت تعني انتحاراً نووياً للانسانية وتدميراً تاماً للحضارة. ولم يعد حسبان الحساب للوضع الدولي في صياغة استراتيجية أيـة ثـورة ضروريـا فقـط للاعتبارات الانسانية المحضة - احتمالي تحولها إلى حرب كبرى أو انتحار نووي - بل أيضا من أجل حسبان الحساب لفرص نجاحها أو تحولها إلى كارثة وطنية شاملة للسكان كما يجري امـام اعيننا الآن في كـردستـان العراقية.

إن الحزب الذي يعي مسؤوليته ازاء شعبه ووطنه وطبقته لا يستطيع ان يصوغ استراتيجيته بمعزل عن استراتيجية السلام العالمي التي صاغها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي. وهي من اعظم الانجازات التاريخيـة للعلم الماركسي - اللينيني والمبـادىء الانسـانيـة. وتطبيقـاً لهذه السياسة ينسحب الجيش السوفيتي من افغانستان وتعرض الحكومة الافغانية المصالحة الوطنية مع ثورة الردة وتعرض حكومة كمبودجيا المصالحة مع نوردوم سيهانوك وقوات السفاح بول بوت. وتتفاوض حكومة نيكاراغوا الثورية مع ثورة الردة للمصالحة وتعرض الثورة في سلفادور التراجع المنظم والمساومة بين الثورة والردة.

إن استرايتجيتنا الوطنية يجب أن تنطلق أولاً من اننا نعمل في دولة وطنية يتعرض استقلالها للخطر وثانياً - إن العراق ينتمي إلى منظومة الدول العربية والدول الشرق اوسطية والعالمية والخ.. إن الحرب العراقية الايرانية ليست الحرب الوحيدة في المنطقة، فإلى الشرق منها مباشرة

توجد الحرب غير المعلنة ضد افغانستان وإلى الغرب من العراق يناضل الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي وكذلك لبنان وفي اثيوبيا توجد حرب اهلية ساخنة وفي السودان حرب مماثلة وبين ليبيا وتشاد.. وكل هذه الحروب في منطقة Centeom (القيادة المركـزيـة) الأميركيـة وتهدد هذه الحروب قضية السلام العالمي. ويعقد استمرار بعضها معالجة بعضها الآخر وعلى سبيل المثال: فإن استمرار الحرب ضد افغانستان يقيد حرية الاتحاد السوفيتي في ايجاد حل سريع لحرب الخليج واستمرار هذه ما دام العراق وايران متشابكين في صراع مصيري يعقـد قضيـة الشعـب الفلسطيني في نضاله الصعب ضد الاستعمار الصهيـوني كما يعقـد كفـاح الشعب اللبناني الذي يقاتل منـذ بضعـة عشر سنـة والسلاح بيـده ضـد العدوان والاحتلال الإسرائيلي وضد الانعزالية.

فكيـف يجب أن نعـدل استراتيجيتنـا وتـاكتيكنـا لتنسجـم مـع الاستراتيجية الجديدة، استراتيجية السلام والتعاون بين النظامين العالميين المتناقضين جذرياً، لتلائم الظرف العالمي الراهن وظروف المنطقة والامة العربية وتعتمد على الواقع الموضوعي لبلادنا التي تخوض حرباً وطنية عادلة دفاعاً عن الاستقلال الوطني وحق الشعب في اختيار نمط الحياة الذي يريده بملء حريته، مستنيرين بالتفكير الجديـد الذي يعـم الحركـة الشيـوعيـة العالمية؟

إن حرب الاستنزاف المدمرة المهلكة تدور للسنة الثامنة على التوالي بين العراق وايران. ويقاتل العراق دفاعـاً عـن النفس للسنـة السـادسـة على التوالي. وقد انهكـت الحرب الشعبين وقـد اشتبـك النظـامـان في صراع مصيري واصبحا عاجزين عن الانفكاك عن بعضهما، وهذا يصدق على النظام الايراني بالاخص الذي يرفض حتى الآن كل وساطة وكل تسوية

على العكس من النظام العراقي.

يرى بعض المراقبين أن ايران لم تعد قادرة على اجتياح العراق واحتلاله. والحال انه حتى عبقرية لينين في ١٩١٨ كانت لا تزال ترى انه من غير الممكن التكهن بنتيجة الحرب ولكن بعد بضعة اشهر فقط انهارت المانيا وحلفاؤها. فمن الصعب غاية الصعوبة التكهن بما ستنتهي إليه الحرب. وفي حرب متكافئة كالحرب الجارية الآن يلعب العامل النفسي، أي المعنوي، الدور الفاصل، وهو ما يصعب جداً التكهن به في ظل الانظمة الاستبدادية. وحتى الآن تستمر الحرب وتقرض ايران كالفأر خريطة العراق بقضم صغيرة. إن زمرة صدام حسين قد اعلنت مراراً انها لن تتنازل عن حكم العراق إلا ارضاً خالية من «الاثني عشر مليون» عراقي. ومن باب اولى أن تبيد الشعب الكردي (كما اباد الاتراك الارمن في الحرب العالمية الأولى) قبل أن تضطر إلى الانسحاب من كردستان العراقية. إن التعاون والتنسيق بين الثوار الاكراد والقوات الغازية الايرانية لم يعد مجرد خيانة للوطن بل يمكن أن يعني أيضاً تيسير عملية الابادة الفاشية للسكان الآمنين.

٢ ـ الاستراتيجية الوطنية في ظروف الحرب الوطنية

وكما شخص المؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي، وجرى بحثه فيما تقدم، فان الحرب العراقية الايرانية دخلت مرحلتها الثانية أو طورها الثاني. وتم تبادل الادوار بين الطرفين فغدا المعتدي ضحية والضحية معتديا والمهاجم مدافعاً والمدافع مهاجماً وانتقل ميدان الحرب إلى أرض العراق منذ تموز ١٩٨٢ ومن ثم عرض العراق شروط صلح ديمقراطي عادل رفضتها ايران كما رفضت شروط وقف القتال الشامل

واجراء مفاوضات سلمية.

إن الحرب عامل خارجي وبالنسبة لثورة بلد المدافع عن نفسه دفاعاً عادلاً والذي ـ تدور الحرب على أرضه يمكن أن تلعب الحرب دور « الصدفة الحاسمة غير الملائمة » فهي صدفة لان الغزو الايراني ليس نابعاً من المجتمع العراقي ولكن كونها حاسمة في مصائر الثورة يعني انها على رأس العوامل الاستراتيجية الاساسية التي يجب أخذها في رسم الخطة الاستراتيجية السياسية أو في تعديلها تعديلاً جذرياً. وهو ما كان يجب على المعارضة العراقية أخذه بنظر الاعتبار منذ تموز ١٩٨٢، بيد أنها تجاهلت هذا العامل.

ولكن ما الذي يستوجب تغيير الخطة الاستراتيجية؟ وهل الحرب بحد ذاتها سبب كاف لمثل هذا التغيير؟.

يقول العالم السوفييتي اناتولي بـافلنكـو: « تتغير الاستراتيجيـة نظـراً لانتهاء مرحلة استراتيجية وحلول المرحلة الاخرى التالية ويكون هذا مرتبطاً في العادة بتنفيذ المرحلة المعينة أو تغيير توزيع القوى الطبقية » (١٧ ـ ٧٨).

وعليه يوجد سببان لتغيير الخطة الاستراتيجية (١) تنفيذ مهام المرحلة أي البرنامج الادنى (٢) تغيير علاقة القوى أو توزيعها. بيد أن الشرط الأول في العراق لم يتحقق أي أن المهام والاهداف البرنامجية للطور الراهن من الثورة الوطنية الديمقراطية لم تتحقق بل بالعكس فهناك دلائل تشير إلى أن تحقق الثورة البرجوازية من أعلى من جانب النظام القائم، لم يتوقف فقط بل توجد علائم ارتداد أيضاً عما تحقق فعلاً، ومنها الغاءنـقابـات العمال في القطاع العام، والغاء قانون العمل والغاء وزارة الاصلاح الزراعي

باعتبار أن الاصلاح قد انتهى والحال أن أكثر من ٣٠ ٪من الأرض المزروعة وهي اخصب جزء منها وأكثرها تطوراً بقيت بحوزة الملاكين.

بيد أن تغييراً جوهرياً طرأ على المهام البرنامجية، موضوعياً. فإن الغزو الايراني ـ وخطر الاحتلال الايراني للعراق وتجزئته يضع في جدول العمل صيانة استقلاله التام ووحدة ارضه، على رأس الاهداف البرنامجية. ومن هنا برزت إلى المقدمة مهمة الدفاع عن الوطن التي لم يكن لها ضرورة بالطبع في الخطة الاستراتيجية حتى حزيران ١٩٨٢.

ولم يكن تأثير الغزو الايراني ليقف عند هذا الحد فقط فقد أثر على مواقف جميع الطبقات وبالتالي على توزيع القوى الطبقية. فاعاد الغزو هذا التوزيع على نحو جديد، وهذا يستلزم تغيير الخطة الاستراتيجية برسم خطة جديدة تتفق مع مقتضيات الحرب الوطنية التحررية والثورة الوطنية الديمقراطية معاً.

٣ ـ الهدف الرئيسي (الاستراتيجي)

لقد فرضت الحرب هدفاً رئيسياً جديداً على اللوحة الاستراتيجية وهو (انهاء الحرب) ومنذ بدء الحرب تبنى الحزب الشيوعي العراقي شعار انهاء الحرب وسحب القوات العراقية إلى الحدود الدولية. وقد اكتسب هذا الشعار مضمونا جديداً في الطور الثاني من الحرب إذ غدا يعني صيانة استقلال العراق وحق شعبه في تقرير مصيره بنفسه. ولذا ربط المؤتمر الوطني الرابع للحزب ربطاً دقيقاً محكماً بين انهاء الحرب والسلام العادل الذي يعني ضمان حق تقرير المصير للشعبين بما فيه حق اختيار النظام الاجتماعي والسياسي وصيانة وحدة وسلامة اراضي كل من البلدين كما

تقدم بحثه. واعطى المؤتمر الاولوية لشعار انهاء الحرب على حساب شعار اسقاط الدكتاتورية واقامة البديل الديمقراطي. ولكن الميل الانعزالي دأب على تشويش الصورة بانزال الشعار الاستراتيجي إلى مرتبة التاكتيك وكأن الاستقلال الوطني التام وحق تقرير المصير اهداف تاكتيكية وليس اهدافاً مصيرية، يتوقف عليها مصير البلاد والثورة. وقد اختزل الميل الانعزالي شعار انهاء الحرب بصلح ديمقراطي عادل إلى مجرد تاكتيك لجر الجماهير إلى الإصطدام بالحكومة القائمة «لكي تتعلم الجماهير من تجربتها» بان الاولوية يجب أن تعطى لاسقاط النظام (١ - ص ٥٢) وذلك بتفسير انهاء الحرب بتقويض الجبهة الدفاعية، بدعوة الجنود إلى ترك الجبهة والطلاب إلى ترك التدريب العسكري، دون أي تفكير في أن هذه الدعوات لو تحققت فسوف تفتح ابواب البلاد على مصاريعها أمام جحافل الخميني المتعصبة تعصباً اعمى، دون شعور بالمسؤولية.

إن انهاء الحرب مع الحفاظ على الاستقلال التام وحق تقرير المصير بصد الغزو الايراني ليس فقط شعاراً أو هدفاً استراتيجيا رئيسياً وحسب بل الهدف الاستراتيجي الأول ما دام خطر الاحتلال الاجنبي ماثلاً، إذ عليه يتوقف مصير الشعب والثورة. وهذا يعني أن الهدف الاستراتيجي الثاني «اسقاط النظام» يخضع للاول وليس العكس ويرفض الديالكتيك الماركسي في السياسة وضع هدفين رئيسين استراتيجيين في مستوى واحد من الاولوية، فهذا من الاختيارية وليس من الديالكتيك. وكما في الاستراتيجي لا توجد في التاكتيك ايضاً مهمتان مركزيتان اثنتان في آن واحد بل توجد دائماً مهمة مركزية واحدة في وقت واحد.

إن شعار انهاء الحرب يستلزم اسناد الدفاع الوطني بكل قوة لحماية الاستقلال الوطني حتى يتمكن الشعب العراقي بمساعدة الضغط الدولي

وبالتنسيق مع الشعب الايراني من تحقيق انهاء الحرب بصلح ديمقراطي عادل بدون الحاق، وعن هذا الطريق يمكن للمعارضة أولاً كسب القوات المسلحة وثانياً التغلغل بين الجماهير لمعرفة مشاكلها والعمل على حلها بتنظيم اشكال بسيطة من التنظيمات الشعبية التي تنهض بادارة الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي لا تتعارض معها بل تسند المجهود الحربي مما يفوت على السلطة الدكتاتورية فرصة ضرب هذه التنظيمات وتفرض على السلطة اشكالاً من الحريات السياسية التي تتيح للمعارضة تعبئة الجماهير وتنظيمها أولاً للدفاع عن الوطن وثانياً للاستعداد للثورة ولنا من الفترة التي سبقت كومونة باريس وثورة اكتوبر دروس غزيرة في هذا المجال.

أما البقاء عشرات السنين على الجبال وفي المنفى وترديد شعار أنهاء الحرب واسقاط الدكتاتورية فلن يقدم الثورة العراقية خطوة واحدة إلى الامام وانما يؤخرها أكثر فأكثر ويحمل الجماهير المزيد من المآسي وقد يعرض الوطن للاحتلال.

٤ ـ العدو الرئيس

إن تشخيص العدو الرئيس هو أحد القضايا الاساسية في رسم الاستراتيجية السياسية. وقد شخص الحزب الشيوعي العراقي منذ ١٩٧٩ الدكتاتورية الرجعية المعادية للديمقراطية باعتبارها العدو الرئيس الذي يقف عائقاً دون استئناف مسيرة الثورة الوطنية الديمقراطية. ومنذ الغزو الايراني للعراق في تموز ١٩٨٢ اصبح العدو الخارجي هو العدو الرئيس فقد احتل مؤقتا محل العدو الداخلي لانه، أي العدو الخارجي، يهدد البلاد بنير مزدوج أجنبي وداخلي أشد رجعية وخطراً بما لا يقاس من العدو الداخلي أي الدكتاتورية الراهنة. وما دام هذان العدوان متناحرين فيما

بينهما في معركة مصيرية إذ يريد احدهما ـ الخارجي القضاء على الآخر ـ الداخلي فلا يمكن أن يشغلا مركزاً واحداً في نفس الوقت، أي مركز العدو الرئيسي ما داما مشتبكين في صراع الحياة أو الموت. ويحاول الميل الانعزالي في تخبطه وتشوشه أن يضع العدوين في صعيد واحد في آن واحد، وهذا أيضاً من الاختيارية وليس من الديالكتيك. ففي الحرب العالمية الثانية كانت الامبريالية المحورية الالمانية ـ اليابانية ـ الايطالية العدو الرئيسي للشعوب وغداة الحرب اصبحت الامبريالية الاميركية وحلفاؤها من الناتو هي العدو الرئيسي للشعوب. وبالنسبة للشعب الصيني كان الغزاة اليابانيون وعملاؤهم هم العدو الرئيس ثم عادت دكتاتورية شيانغ كايشيك الفاشية هي العدو الرئيس بعد انهيار اليابان.

وعندما يزول خطر الاحتلال الايراني للعراق فسوف تعود الدكتاتورية إن بقيت إلى احتلال مركز العدو الرئيس. إن القول بأن الزمرة الحاكمة في العراق اليوم (هي زمرة وليس طبقة) (١ ـ ص ٥١) ضرب من الحذلقة، من التظاهر بالدقة العلمية المتناهية.... فإن الزمرة الحاكمة تمثل مصالح أوسع فئات البرجوازية العراقية، انها تمثل البرجوازية القومية البرجوازية الجديدة على النمط الغربي، أما أتباع ايران فهم من بقايا الاقطاع والبرجوازية الاسيوية الرجعية القديمة البالية التي تريد العودة بالعراق إلى ما قبل ١٤ تموز. والبرجوازية القومية هي التي تقود كطبقة الدفاع الوطني ضد الغزو الايراني. ولا يستطيع ألا يرى ذلك إلا النعامة السياسية التي تدفن رأسها في الرمل لئلا يراها الصياد.. ولولا التفاف البرجوازية القومية وحتى الجماهير الواسعة من البرجوازية الصغيرة حول الحكومة الراهنة لانهارت تحت ضربات العدو.

وما دام خطر الاحتلال الايراني ماثلاً فإن البرجوازية القومية حليف

ضروري للشعب في دفاعه الصعب من أجل حقه في تقرير مصيره بنفسه ضد الغزو الايراني. ولا يستخلص من هذا البتة ضرورة بقاء الدكتاتورية الراهنة سالمة حتى نهاية الحرب. فالدكتاتورية القائمة هي شكل من اشكال الحكم البرجوازي، وفي ظروف الحرب الدفاعية الوطنية العادلة يمكن ويجب تغيير هذا الشكل دون أن تتيح عملية التغيير الفرصة للغزاة لاختراق الجبهة ـ وهذا التغيير من شأنه أن يفسح في المجال لتحقيق الهدف الرئيس التالي: « الحكومة الوطنية الديمقراطية الائتلافية » حتى قبل أن تنتهي الحرب. وقد تصور ماركس نفسه مثل هذا الاحتمال كما تقدم بنا بحثه في حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ عندما غزا الالمان فرنسا في الطور الثاني من الحرب وحمل الشعب الفرنسي السلاح ضد الغزاة ونصح ماركس العمال الفرنسيين بعدم البدء بالحرب الاهلية ما دام الغزاة في فرنسا..

وقد لا يتحقق اسقاط الدكتاتورية إلا بعد الحرب بسنوات ما لم تحل محلها سلطة الاحتلال الايراني ـ الرجعي المزدوج، ما دامت المعارضة ملتزمة بموقفها الانعزالي السلبي من قضية الدفاع الوطني.

إن الخطأ في تحديد العدو الرئيس في الظرف المناسب يضيع على القوى الثورية الفرصة التاريخية لقيادة النضال الوطني وبالتالي قيادة الثورة ويسبب خسرانها لحلفاء لا غنى عنهم مهما كانوا وقتيين لضرب العدو الرئيس وتعريض نفسها لتلقي الضربات من العدو الرئيس والعدو الثاني في آن واحد ولا تشفع لها تضحياتها الجسمية نتيجة لذلك لتبرير خطئها الاستراتيجي.

٥ ـ القوى الاساسية والاحتياطية في الاستراتيجية:

القوى الاساسية في الثورة الوطنية الديمقراطية هي: ١ ـ الطبقة العاملة

٢ ـ سواد الفلاحين ٣ ـ وامتدادهم في المدن ولا سيما المثقفون الشعبيون اما القوى الاحتياطية فهي الفئات التقدمية من البرجوازية ولا سيما المتوسطة والصناعيون. وهذه القوى الاجتماعية الاساسية والاحتياطية، هي التي تدعم الحرب الوطنية الدفاعية العادلة التي تقودها الآن البرجوازية القومية لوحدها بسبب موقف المعارضة السلبي منها. ولا تلعب فيها الطبقة العاملة دوراً سياسياً مستقلاً جراء انعزال طليعتها السياسية عنها بسبب موقفها السلبي من الدفاع عن الوطن حتى الآن، وظروف الارهاب الفاشي.

ومع ذلك فان الطبقة العاملة تضطلع باوسع دور في الدفاع عن الوطن سواء باعتبارها القوى المنتجة الرئيسية أو باعتبارها القوة الضاربة ضمن القوات المسلحة أي سواء في الانتاج المدني أو الانتاج الحربي أو القتال الفعلي في الجيش النظامي أو الجيش الشعبي...

إن الحرب الوطنية العادلة قد صلبت الطبقة العاملة وعززت دورها في المجتمع وفي القوات المسلحة أي في أعظم وأهم اجهزة الدولة بالرغم من انفصال طليعتها السياسية عنها.

وقد بلغت نسبة العمال في القوة العاملة نحو الثلث فاصبحوا أكثر من الفلاحين عدداً لأول مرة في تاريخ القطر. إن استخدام أكثر من مليون عامل مصري وأجنبي بالإضافة إلى العمال العراقيين مؤشر آخر إلى ازدياد وزن العمال الاجراء بالنسبة لمجموع الشغيلة ويمكن القول الآن بلا مجازفة أن عدد الاجراء الآن من عراقيين وغيرهم يناهز عدد السكان الآخرين العاملين في عمل مجزى. وهذا دليل واضح على تبلتر المجتمع العراقي أي بروز الطابع البروليتاري للمجتمع. إن عملية استخدام العمال الاجانب قد

سبقت الحرب أي أن استخدامهم في البدء لم يكن تعويضاً عن العمال المجندين في القوات المسلحة.

ومع ان الحرب حولت مئات الألوف من العمال من ميدان الإنتاج الاجتماعي إلى القوات المسلحة من جهة فإنها عززت وزن الطبقة العاملة الاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى. إذ سلحتها ودربتها على القتال وسيستها في عملية الدفاع عن الوطن. وهذا ما يلفت إليه انتباه الدكتاتورية الراهنة ويقض مضاجعها بالنسبة للمستقبل. وقد صرح الدكتاتور العراقي في خطاب له في ١١ آذار / ١٩٨٧ انه يفكر منذ مدة بالغاء كلمة (عامل) واستبدالها بكلمة (موظف) بالنسبة لعمال القطاع العام الذي يضم أكبر المشاريع وأعلاها تقنية وبالتالي يستخدم أرقى أقسام الطبقة العاملة ثقافة ونسبة كبيرة منها عددياً. أما السبب الموجب فهو ان العوائل «ترفض الخطيب العامل الذي يطلب يد ابنتهم ولا تتردد في تزويجه إذا كان موظفاً». وقال أيضاً انه يفكر بالغاء قانون العمل ليتمتع عمال القطاع العام بنفس الأمتيازات التي يتمتع بها الموظفون. وانه ـ وهنا بيت القصيد ـ يريد أيضاً الغاء النقابات العمالية لعمال القطاع العام ويستبدلها بالاتحادات بالنسبة للقطاع الخاص. انه يريد حل أبسط أشكال التنظيم الطبقي للقسم المتقدم المنظم من الطبقة العاملة ـ النقابات التي سبق له أن أعدم أبرز قادتها البعثيين محمد عايش وبدن فاضل، إنه يريد أن يمحو النضال الطبقي للعمال بمحو اسمهم من قاموس اللغة العربية وحرمانهم من سلاحهم الوحيد ـ التنظيم ـ ويذيبهم في البيرقراطية بيد أن الهدف الرئيس هو تقويض دور الطبقة العاملة القائد في ثورة الشعب الآتية عن طريق شق صفوف الطبقة بفصل قسمها المتقدم عنه بتفسيخه بالفئات.

وبالنسبة للمستقبل إن أشد ما تخشاه الدكتاتورية هو نهوض الحركة البروليتارية الثورية من خلال حرب الدفاع عن الوطن، رغم أنها بطشت بتنظيمها السياسي وحرمتها من جميع وسائل الاحتجاج الشرعية وتحاول الدكتاتورية افساد وعي العمال الطبقي باسباغ صفة الموظف، الأفندي البرجوازي الصغير عليهم لتخلق طبقة بروليتارية بيرقراطية إلى جانب البرجوازية البيرقراطية. التي هي أساس الدكتاتورية القائمة.

وقد تعززت مكانة الطبقة العاملة خلال الحرب، بفضل تطور القوات المسلحة أيضاً. فإن « الماكنة الحربية » اليوم هي ذاتها جهاز صناعي ضخم يفوق بآلياته وتقنيته وملاكاته كل الجهاز الصناعي في العراق هذا فضلاً عما يسوده من ضبط عسكري قسري متفوق بصرامته وقسوته على الجهاز الصناعي الرأسمالي المدني ولم تعد المؤسسة العسكرية جيش الفلاحين الفقراء الأميين الذي كان نموذجه اللواء (١٩) الذي كان أداة بيد الردة ضد ثورة ١٤ تموز فحتى الفلاحون والمثقفون الشعبيون (الصغار) المجندون في القوات المسلحة اكتسبوا إلى هذا الحد أو ذاك صفات بروليتارية - باستثناء صفة واحدة هي انتاج القيمة. فقد (تبلتروا) إلى حد معين في الجهاز العسكري المصنع وغدوا عمالاً موصوفين واقتربوا من العمال المتقدمين الذين سبق أن تربوا في المشاريع الكبيرة.

ووجود العمال بنسبة كبيرة إلى جانب فئات الكادحين الأخرى ولا سيا الفلاحين والمثقفين الشعبيين في القوات المسلحة، جنباً إلى جنب يسهل إلى أبعد حد عملية التحالف في حلف العمال والفلاحين، الأساس الراسخ للجبهة الوطنية الحقيقية، القادرة فعلاً على تحقيق التحولات الثورية الوطنية، الديمقراطية. إن القوات المسلحة تغدو أقوى حلقة لحلف العمال

والفلاحين وسائر الكادحين الحلقة الفتية القـادرة والمسلحـة والقتـاليـة، وبالتالي أقوى حلقة في جيش الثورة. وقـد قـال لينين: ـ « استـوعبـت القوات المسلحة خلال الحرب زهرة الأمة، الجزء القادر من الشعب، إن هذا العامل يؤكد وحده بقوة الحاجة والأهمية للعمل العسكري الذي قام به الحزب البلشفي في الكفاح مـن أجـل كسـب ملايين الشغيلـة المعبئين للحرب. فإذا أمكن كسب تلك القوى الهائلة إلى جانب الثورة فسوف يقدم للبروليتاريا حليفاً جماهيرياً مسلحاً، وفي نفس الوقت فإن هذا سوف يجرد الطبقات الحاكمة من سلاحها ويعطي الامكانية لاكمال الثورة بسرعة وبأقل ما يمكن من سفك الدماء » (٧ ـ ج ١ ص ٢١).

تتحدث المعارضة عن الجبهـة العـريضـة بيـد أنها لا تعني بها سـوى الأحزاب المعارضة للحكومة. وتدعو أحياناً قواعـد الحزب الحكـومـي ولكن ليس لجره إلى الجبهة الوطنية بل لتقويضه كحزب مع ان هذا الحزب يقبض على ملاكات الدولة والمنظمات الاجتماعية. وفوق كل شيء ملاكات القوات المسلحة ومهما قلنا بصدد أهمية كسبه للجبهة العريضة فليس من المبالغة بشيء ويخوض أعضاؤه وكوادره غمار الحرب منذ البدء جنباً إلى جنب مع مؤيدي الأحزاب الأخـرى ويقـدمـون التضحيـات كسائر أبناء الشعب. وتتعامل المعارضة المسلحة مع القوات المسلحة تعاملها مع عدو لدود وتقيم الدكتاتوريـة جـداراً سميكـاً بين القـوات المسلحـة والمعارضة. أما الانعزالية فإنها تعمل على تعزيز هذا الجدار بدلاً من أن تعمل على خرقه بالتحالف مع القوات المسلحة.

وباستثناء فئات من الاقطاعيين ومن البرجوازيين الرجعيين ومن رجال الدين، انحازت البرجوازية القومية على العموم إلى جانب الشعب ضد الغزو الايراني للعراق، وهي التي تقود القوات المسلحة من خلال أبنائها

الضباط، وهي تفعل ذلك خوفاً على سلطتها وثروتها من الضياع بالطبع. ولكن هذا لا يعني أنها من القوى الاحتياطية في معركة الدفاع عن الوطن إذ أنها أكثر من ذلك مع الأسف فهي التي تقود الدفاع عن الوطن لوحدها الآن بسبب موقف المعارضة الانعزالي السلبي من الدفاع عن الوطن وبسبب شعور البرجوازية بحاجتها إلى الشعب الذي لا تتذكره إلا في الملمات، فمن الممكن انتزاع مكاسب سياسية منها بالنضال، الجماهيري من دون الحرب الأهلية، التي تتعارض مع الدفاع الوطني. هذا ما تمليه علاقة القوى الراهنة في البلاد وهذا من أهم الاستنتاجات السياسية التي تمليها الظروف الراهنة.

ولكن هل يجوز التساوم مع برجوازية حاكمة تخوض حرباً وطنية دفاعية عادلة؟

كتب ماركس رسالة إلى نيوفنغيس في ٢٢ / شباط / ١٨٨١ أي بعد عشر سنوات من كومونة باريس جاء فيها: «أنت تدلني على الأرجح إلى كومونة باريس ولكن أغلبية الكومونة لم تكن البتة اشتراكية، ولم يكن من الممكن أن تكون اشتراكية، ناهيك بأن الكومونة كانت انتفاضة مدينة واحدة فقط في ظروف استثنائية. ومع ذلك كان بوسع الكومونة، لو كانت تملك نصيباً معيناً من التفكير السليم، أن تتوصل إلى مساومة مفيدة لسواد الشعب كله مع فرساي الأمر الوحيد الذي كان يمكن بلوغه آنذاك) (٥ ـ ٢٤٨).

الفكر السليم على حد تعبير ماركس كان يملي على كومونة باريس المهيمنة على عاصمة البلاد ومن ورائها ٣٠٠,٠٠٠ عامل مسلح أن تتساوم مع الحكومة البرجوازية التي خانت وطنها وتساومت مع العدو لتنتزع

سلاح العمال.. ذلك لأن المساومة كان يمكن أن تكون لصالح سواد الشعب لأن المساومة مع الحكومة كانت الشيء الممكن الوحيد في ظل الغزو الالماني، كان بامكانها أن تضع حداً للارهاب الدامي الذي ذهب ضحيته فيما بعد ٤٠,٠٠٠ عامل باريسي استشهدوا بعد سقوط الكومونة، فلماذا لا تكون المساومة جائزة وممكنة بل وضرورية أيضاً مع برجوازية قومية لم تخن وطنها بعد بل لا تزال تقود لوحدها معركة الدفاع عن الوطن؟ ـ ونعني بالمساومة التحالف للدفاع عن الوطن ومن أجل صلح ديموقراطي عادل ـ لماذا؟ وخطر الاحتلال الايراني والتبعية الايرانية ماثلان؟ لماذا كان جائزاً للمعارضة الديمقراطية ولا سيما الحزب الشيوعي في الصين التحالف مع دكتاتورية جيانغ كايشيك الفاشية ضد الغزو الياباني؟ فهلا يجوز لمعارضة مسلحة انزوت بنفسها وراء كواليس المسرح السياسي في البلاد وبذلك وضعت نفسها تحت رحمة العدو الخارجي أن تتساوم مع برجوازية قومية لا تزال تقود الدفاع عن الوطن لوحدها؟.

إن الموقف الانعزالي السلبي السائد في صف المعارضة من قضية الدفاع الوطني إنما يرجع أيضاً إلى العجز عن رؤية ما استجد في علاقة القوى منذ تموز ١٩٨٢، تغير مواقع الطبقات والقوى السياسية نتيجة الغزو الايراني للعراق، الأمر الذي يستلزم تعديل اللوحة الاستراتيجية تعديلاً جذرياً ما دامت الحرب دائرة الرحى تشكل خطراً على الاستقلال الوطني. إن انعزال المعارضة عن سواد الشعب لثماني سنوات متوالية بسبب الارهاب الفاشي بادىء ذي بدء وعجزها بالتالي عن رؤية المستجدات في حياة البلاد السياسية أدى بها إلى الوقوف موقفاً انعزالياً سلبياً من قضية الدفاع عن الوطن فتفاقمت عزلتها عن الجماهير وحصرت نفسها في حلقة مفرغة لا تجد منها مخرجاً لنفسها.

إن دور الطليعة لا يمكن أن تضطلع به فصيلة انفصلت جسدياً عن جماهير الطبقة العاملة وسواد الشعب لعدة سنوات على التوالي. كما إن الطبقة المتقدمة لا يمكن أن تلعب دور الطليعة في المجتمع ما دامت منفصلة عن قيادتها السياسية. إن هذا النمط من العلاقات واستمراره لعدة سنوات متوالية دليل كاف بحد ذاته على خطأ السياسة التي تنتهجها الطليعة وعلى ضرورة اعادة النظر فيها وتعديلها جذرياً إن لم يكن نبذها كلياً.

٦ ـ الحلقة المركزية في التاكتيك:

من المبادىء الأساسية في التاكتيك السياسي أي في فن القيادة السياسية اكتشاف الحلقة المركزية في سلسلة الأحداث، الحلقة الأولى التي يؤدي الامساك بها إلى جر السلسلة بأكملها كما يقول لينين. فما هي هذه الحلقة الرئيسية في الوضع الراهن هل هي الانتفاضة المسلحة أو حرب الأنصار لاسقاط الدكتاتورية أم الدفاع عن الوطن؟

سبق وأن بينا أسباب استبعادنا لاحتمال اسقاط الدكتاتورية سواء بانتفاضة شعبية أو بالكفاح المسلح لقوى الانصار أو بانقلاب عسكري فوقي في ظل الغزو الايراني المتفاقم ما لم تؤمن الجبهة الدفاعية بوجه الغزاة. فالدفاع عن الوطن هو المهمة المركزية أو الحلقة المركزية التي يؤدي الامساك بها إلى جر السلسلة بكاملها ولا يمكن الامساك بنفس القوة بحلقتين في آن واحد لأن هذا يؤدي إلى تشتيت الجهد، وليس إلى تركيزه، كالركض وراء أرنبين في وقت واحد. وهذا لا يعني التخلي نهائياً عن اسقاط الدكتاتورية وإنما تركيز الجهد على الدفاع عن الوطن وعن طريق ذلك فقط يمكن أن تحقق انهاء الحرب بدون الحاق؟ وتغيير الحكومة على أساس اوسع تحالف بين جميع القوى الحريصة على الدفاع عن الوطن.

إن الانعزالية لا ترى الدفاع عن الوطن بوجه العدوان الايراني الذي جر أوسع الجماهير إلى خضم أعنف نشاط منذ ثورة ١٩٥٨ - ١٩٥٩. لأنها تغمض عيونها عليه باصرار فلا ترى فيه نشاطاً جماهيرياً سياسياً بالغ العنفوان ونضالاً وطنياً من أعلى أشكال النضال وقد مر بنا كيف أن لينين لا يفرق بين الانتفاضة الوطنية والحرب الوطنية العادلة إلا بالشكل. فقد حجب الحقد المقدس على النظام الراهن عنها رؤية أي شيء سواه. لقد صدت جماهير الجنود والضباط شرقي البصرة أقوى وأطول حملة (كربلاء - ٥) شنها العدو المتفوق بالرجال والذي زج بلا مبالاة بالخسائر البشرية بموجة إثر موجة من المتعصبين الذين خيلتهم الأوهام وأعمتهم شهوة الفتح وكان هذا أعظم نشاط سياسي خلال سنين عديدة.

وكثيراً ما يجري الخلط بين الشعار أو الهدف الرئيسي في الاستراتيجي وبين الحلقة المركزية في التاكتيك. وقد رفضت الانعزالية اعتبار الدفاع عن الوطن في الطور الراهن من الحرب الحلقة المركزية التي تمكن من تحقيق الهدف الاستراتيجي بانهاك الحرب وانهاء الدكتاتورية والأنكى من ذلك هو انها ترفض هذه المهمة باعتبارها اياها دفاعاً عن الدكتاتورية « ليس إلا »!! وحتى في الحرب الامبريالية بعد ثورة شباط ١٩١٧ في روسيا أخذت قضية حماية الجبهة من اختراق العدو، أي الدفاع عن الوطن بنظر الاعتبار وكشرط جوهري لانتصار الثورة فكتب لينين.. « حيث يكون للبلشفية فرصة لابداء آرائها جهاراً لا تجد هناك تفكيك تنظيم وقد شجب البلاشفة الفوضوية والبلانكية، وعملوا بصبر لتكوين أكثرية واعية في القوات المسلحة كما في البلاد بأسرها ضد البرجوازية، أكثرية تستطيع نقل السلطة إلى البروليتاريا. وكان كسر معنويات القوات المسلحة من شأنه إعاقة هذه المهمة وعليه لم يكن باستطاعة البلاشفة أن يساهموا فيه

وكانت الوحدات التي يسودها نفوذ البلاشفة في القوات المسلحة القديمة المفككة تتحول إلى نواة للجيش الثوري ذي الجدارة القتالية والمنضبط والمستعد للدفاع سوية مع الحرس الأحمر البروليتاري عن الثورة ضد أعدائها الداخليين والخارجيين وضد خلفية التفكك العام التنظيمي والمعنوي للقطعات العسكرية وكانت المقاومة البطولية لهذه الوحدات للهجوم الالماني خلال الاختراق في تارنوبول وفي الدفاع عن ريغا وفي معركة موثزوند دليلاً واضحاً على ذلك» (٧ - ج ٢ ص ٣٥).

وهكذا حتى في الحرب الامبريالية كان من الضروري حماية الجبهة من اختراق العدو لتأمين الثورة ضد البرجوازية. ذلك هو المنطق الثوري غير الانعزالي، الدفاع الصامد عن الوطن ضرورة لا بد منها لانتصار الثورة - هذا هو منطق ماركس ولينين.. وهذا هو عين الصواب سواء كانت الثورة تدق الأبواب أو لا تزال بعيدة إلى هذا الحد أو ذاك.

وليس الكفاح المسلح بنظر الماركسية اللينينية سوى شكل من أشكال النضال وهذا يعني أنه تاكتيك وليس استراتيجية أما بالنسبة للفوضوية فهذا مبدأ مطلق. والمبدأ الأساسي لاستخدام الكفاح المسلح من وجهة النظر الماركسية اللينينية هو اعتماده على الجماهير أي ألا يكون استخدامه بمعزل عن قناعة أوسع للجماهير، كما هو الآن كفاح المعارضة في العراق في ظل الغزو الايراني وليس اعتباطاً انحسار نفوذ المعارضة المسلحة في كردستان بالذات منذ ١٩٨٣ وانزواؤها في المناطق الحدودية الوعرة والضئيلة السكان. فقد أدركت الجماهير، سواء العربية أو الكردية بوعيها الوطني خطر الغزو الايراني على استقلال البلاد وانبرت للدفاع عن الوطن منصرفة عن المعارضة المسلحة رغم كرهها للدكتاتورية.

إن سلاح المعارضة في هذا الطور من الحرب يجب أن لا يستخدم ضد القوات المسلحة المدافعة عن الوطن بل ضد الغزو لصده ورده على أعقابه بالتعاون مع القوات المسلحة. وفيما عدا ذلك يجب ألا يستخدم إلا للدفاع عن النفس ضد الارهاب الفاشي أو أي عدوان آخر.

إن اسقاط النظام عاجلاً واقامة الحكومة الائتلافية الوطنية الديمقراطية لتشن الحرب الثورية ضد الغزاة الفاتحين هو الشيء (الجميل المؤثر الساطع) على حد تعبير لينين، بيد أن هذا لا يزال غير ممكن والغزو الايراني لا ينتظر حتى يتحقق هذا.. والانعزالية إذ ترفض شعار الدفاع عن الوطن الآن وتشوه شعار إنهاء الحرب فوراً بصلح عادل دون الحاق وتحوله بدوره إلى جر الجماهير من أنفها للنضال ضد المدافعين عن الواطن تحت راية النضال ضد النظام بدلاً من النضال ضد الغزاة إنما يعمق انعزالها عن الجماهير ولا يبقي لديها سوى شعار «يسقط النظام» وبذلك تشوه فن القيادة السياسية الماركسي اللينيني الذي يفترض «٢ ـ اجادة متابعة حالة الجماهير ومزاجها، والاندماج بها لدرجة معينة ولكن دون السير في مؤخرة الحركة الجماهيرية، ب ـ المقدرة على ايصال الجماهير إلى موقف سياسي جديد عن طريق تعليمها من تجربتها الخاصة، بما في ذلك من تجربة الأخطاء والهزائم، معرفة ايجاد طريق ملموس أو انعطاف خاص للأحداث يتيح رفع الجماهير إلى درجة جديدة للنضال. ومن الهام لدى ذلك، عدم الاقتصار على طرح شعارات سلبية فقط موجهة ضد النظام القائم أو شعارات تصوغ فقط الأهداف النهائية للحركة العمالية بل إعطاء الجماهير برنامجاً ايجابياً لكل لخطة سياسية. ومن الهام بمكان أيضاً القيام في كل لحظة معينة بابراز المهمة الجديدة والوسيلة الرئيسية لتأديتها، اللتين يمكن بمساعدتها تحضير الانتقال إلى مهام أخرى أيضاً في الطريق نحو

الهدف الاستراتيجي.. » (١٣ - ص ٢٣).

وقد رأينا كيف حولت الانعزالية حتى الشعار الايجابي « انهاء الحرب فوراً ». الذي يتجاوب مع رغبات أوسع الجماهير في العراق وايران إلى شعار سلبي ضد الدفاع عن الوطن وضد النظام القائم الذي هو نفسه بتلهف لانهاء الحرب ولا نشاهد أي شعارات تلبي حاجات الجماهير الراهنة والتي تساعدها على تلمس طريقها وسط مصاعب الحرب وويلاتها، بل كل شيء سلبي ضد الدفاع عن الوطن وضد المجهود الحربي وليس فقط ضد النظام القائم. ومصيبة المعارضة هي انها تظن ان هذا التاكتيك السلبي هو الذي يجر إليها الجماهير الواسعة في حين أنه لم يزدها الا عزلة وترك الجماهير تحت رحمة النظام.

وتستغل الدكتاتورية هذا الوضع ببراعة لعزل المعارضة وترويض الجماهير ليس فقط لفترة الحرب بل لما بعدها أيضاً.

إن الدفاع عن الوطن هو الحلقة المركزية ولكنه ليس الحلقة الوحيدة بالطبع وهو لا يعني مطلقاً التخلي عن النضال السياسي ضد الدكتاتورية في سبيل الحرية السياسية للشعب وفي سبيل ادارة الحرب ادارة ديمقراطية وتحميل أعباء الحرب على كاهل الأغنياء وتخفيفها عن كاهل الفقراء وباختصار تحقيق النهضة السياسية والروحية الضرورية للدفاع عن الوطن ولتحرير الأراضي المحتلة بما في ذلك النضال من أجل تغيير الحكومة إلى حكومة ديمقراطية ولا سيما وان للقوى الثورية خبرة غزيرة في التحالف مع البرجوازية القومية على قاعدة (تضامن - نضال - تضامن) وهذا تحالف وطني محدد ضد الغزو والاحتلال ولا يعني بأي حال من الأحوال العودة إلى تحالف السبعينات. فالتاريخ لا يعيد نفسه. وقد تغيرت مواقع

الطبقات. بيد أن جمهرة البعث وليست قيادته الحالية من الممكن والضروري أن تنتظم إلى تحالف ديمقراطي ثوري مقبل وفي ظروف الحرب يعني التضامن: التحالف ضد الغزو وخطر الاحتلال كما يعني النضال: الكفاح السياسي ضد الدكتاتورية والارهاب الذي تمارسه. والنضال من أجل إنهاء الحرب بسلام عادل بدون إلحاق يستلزم أيضاً القيام بحملة عالمية لحمل المجتمع الدولي على الضغط على إيران لوقف القتال الشامل والتفاوض السياسي لإنهاء الحرب والتنسيق مع القوى الثورية الايرانية المناهضة للحرب ولا سيما حزب توده وكذلك تعبئة جميع القوى المحبة للسلام وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي للعمل من أجل إنهاء الحرب.

إن هذا الصمود يهيء كل الشروط الضرورية لإنهاء الدكتاتورية إذا لم يفلح الشعب في الإطاحة بها خلال الحرب. والدكتاتورية لن تجد نفسها في وضع أسهل للبقاء لأن مشاكل ما بعد الحرب ستكون أصعب بكثير من مشاكل أيام الحرب ـ وهذا ما تثبته تجربة البلدان الأخرى التي خاضت حرباً طويلة مدمرة كهذه فسيكون من الأسهل الإطاحة بالدكتاتورية.

إن حرب الدفاع عن الوطن ضد الغزو والاحتلال يمكن أن تكون مدرسة للثورة والتمرين الأكبر والأخير للاعداد للثورة. فنخبة الرجال القادرين من أبناء الطبقات الشعبية من عمال وفلاحين ومثقفين هم الآن مسلحون ومدربون ومقاتلون في صفوف القوات المسلحة في جبهات الدفاع عن الوطن أو في المؤخرة، هم في الحقيقة وواقع الأمر جيش الثورة العتيد ومن بينهم عناصر طلائع الطبقات الشعبية والفئات الاجتماعية من شيوعيين وديمقراطيين وبعثيين وقوميين عرباً وأكراداً و... إلخ وهم في كل لحظة يقدمون التضحية والفداء بنكران ذات من أجل القضية العامة قضية الوطن. وتترعرع في نفوسهم الروح الوطنية الثورية الجديدة الوطنية

الدفاعية العادلة وليس الوطنية البرجوازية الرجعية الشوفينيـة العـدوانيـة التوسعية التي تنشرها البرجوازية الرجعية.

إن الروح الوطنية الثورية الجديدة تنتشر عفوياً في صفوف القوات المسلحة العراقية منذ بداية الغزو الايراني للعراق/ تموز ١٩٨٢، وتحرق بنيران الحرب العداوة الشوفينية والعنصرية والحقد الايديولوجي الرجعي الأعمى ضد الشيوعية والديمقراطية وضد الأكراد التي غرستها الامبريالية والطبقات الحاكمة والقوى الرجعية. وتربي الحرب الوطنية الطويلة الدائرة الرحى فضلاً عن ذلك روح الجهاد الجماعي بالحد من الفردية والأنانية والروح الرفاقية بين رفاق السلاح بما فيها التضحية بالنفس من أجل إنقاذ الرفيق من الخطر. وبكلمة ان الدفاع العادل عن الوطن يستلزم البطولات الجماهيرية والفردية ويربي لدى خيرة أبناء الشعب القادرين تلك القيم الروحية التي لا يمكن بدونها قيام أي ثورة عظيمة، أي ثورة الملايين.

بيد أن الحرب الوطنية العادلة لا تتيح تربية تلك القيم الروحية فقط بل تربي جماهير الجنود سياسياً أيضاً فبصرف النظر عما تبثه الحكومة من دعاية سياسية فانها تجر الجماهير إلى النشاط السياسي غصباً عنها فتدفع الجندي إلى أن يفكر مع نفسه، إن لم يتهامس مع رفيق السلاح أو يتفاهم معه بالرمز والإيحاء: لماذا كانت هذه الحرب؟ هل كانت قضاء وقدراً أم كان بالإمكان درؤها؟ وماذا يجب عمله بعد الحرب؟ كيف ستنتهي؟ كيف سنبني السلام؟ كيف نعيد بناء الوطن الذي خربته الحرب؟ وفي ظل أي حكومة سنوطد السلام ونبني الحياة الجديدة؟

ولو كان موقف المعارضة سلمياً من الحرب الوطنية الدفاعية لوجهت هذه المشاعر الثورية والخواطر العفوية توجيهاً سياسياً واعياً. ومـع ذلـك

سيفكر الجنود بالتغيير أي بالطريق الثوري ومن صفوف القوات المسلحة بالذات ستنطلق حركة جديدة حركة ديمقراطية ثورية عفوية جبارة. ونؤكد على العفوية لان المعارضة لا تزال تقف موقفاً انعزالياً وحتى عدائياً من القوات المسلحة المدافعة عن الوطن ولا شك في أن ترك حركة الجماهير للعفوية بدون قيادة سياسية مجربة يسهل على الدكتاتورية قمعها أو تضليلها فضلاً عن قمع وتشتيت شمل المعارضة. ولذلك فان مفتاح الوضع السياسي الراهن بأكمله يتوقف على تغيير موقف المعارضة رأساً على عقب وذلك بتبنيها شعار الدفاع عن الوطن وتحالفها مع القوات المسلحة المدافعة عن الوطن بدلاً من مهاجمتها.

كما أن صمود الدفاع العراقي بوجه الغزو الايراني من شأنه ان يفتح عين الشعب الايراني على حقيقة حكامه وبطلان سياستهم التوسعية الغاشمة المقامرة بارواح مواطنيها الذين تقدمهم بلا حساب قربانا لشهوة الفتح والاغتصاب على مذبح القومية الشوفينية المطلية بطلاء ديني زائف. فيتحرر الشعب فكرياً من العبودية الايديولوجية وهذه البداية الضرورية لنهوض ثوري شعبي جديد عارم لا يبقي شيئاً من بقايا القرون الوسطى ولا يذر. ويتضاءل أمامه النهوض الثوري السابق الذي اطاح بالشاه وحده وترك كل التركة الشاهنشاهية القرووسطائية سالمة. هذا فضلاً عن أن الحرب كشفت عن جميع عورات الحكم الرجعي وخدمته للمصالح الاقطاعية والبرجوازية الرجعية وتنكره لحقوق ومصالح الجماهير الكادحة وفضلاً عن المآسي والتضحيات الجسام التي تكبدها الشعب والخراب والدمار الذي شمل البلاد والارهاب الوحشي المسلط على الرقاب. ولذلك دعا حزب توده في بيانه بمناسبة الذكرى السادسة للحرب: « فلنرص صفوفنا في النضال من أجل وقف الحرب المدمرة واسقاط النظام الرجعي! ».

أما انتصار الغزو الايراني على الشعب العراقي فسيطيل فترة الارتداد في ايران إلى العديد من السنين وسيفتح المجال لتطور ايران كقوة امبريالية كما كان يطمح الشاه المقبور نفسه. فانتصار العدوان سوف يقوي الحكم الرجعي اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً.. إذ سيسهل الانتصار «مهما سيكون عليه شكل الحكم الذي ستفرضه ايران على العراق» نهب ثروات العراق، ويعزز مواقع الحكم الرجعي في ايران وتتصاعد الشوفينية على حساب الوعي الطبقي للكادحين ويتصاعد الارهاب ضد القوى الثورية وتتفتح شهوة الحكم الرجعي للتوسع والهيمنة على البلدان العربية الاخرى بدءا ببلدان الخليج ولبنان وما يتطلبه ذلك من عسكرة للمجتمع والاقتصاد الايرانيين والعودة إلى التحالف مع الامبريالية كما كان الامر في عهد الشاه الميت، للحفاظ على الغنائم. وكل هذه كوابح ثقيلة في طريق النهوض الثوري ومن شأنها دفع الدول الصغيرة أكثر فأكثر إلى الارتماء في احضان الامبريالية لحمايتها من التهديد الايراني.

بيد أن دولا أخرى كتركيا وباكستان فضلاً عن الدول الامبريالية لن تقف مكتوفة اليدين لتترك ايران لوحدها تنعم بغنائمها ومن هنا خطر توسع الحرب الذي يهدد السلام العام ليس في المنطقة وحسب وهو الخطر الذي اشار إليه بيان الحكومة السوفييتة آنف الذكر (الفصل ـ ٣).

أما بالنسبة للعراق فلا شك في أن انهيار دفاعه الوطني وتشتيت شمل جيشه لن يضع المعارضة في الحكم بل الاحتلال الايراني. وسوف يتسبب ذلك للشعب العراقي والامة العربية بخيبة امل وانهيار معنوي تفوق ما اصابها في جميع حروب إسرائيل. وستفرض سلطة الاحتلال الايراني نظاماً قروسطياً ظلامياً على الشعب العراقي وسيسحق كل القوى الوطنية

ويتنكر لكل حق قومي ويفرض ايديولوجيته الرجعية بالحديد والنار. ويحارب العلم والحضارة المعاصرة ويشن مذابح طائفية رهيبة تفوق كل ما سبقها في القرون الخمسة السابقة. في حين حتى إذا خرج النظام العراقي الراهن سالماً من الحرب بعد فشل الغزو الايراني فسيخرج نظاماً مهزوزاً خائرا مداناً امام الشعب الذي يتحمل اعباء الحرب وويلاتها والحال تكون الجماهير في أعلى مزاج ثوري واقوى روح معنوية بعد أن تكون قد ارغمت العدو الخارجي على احترام ارادتها في الحفاظ على الاستقلال الوطني واحترام حريتها في اختيار النظام الذي تريده.

٧ ـ اتجاه الضربة الرئيسية

من اركان الاستراتيجية السياسية تحديد اتجاه الضربة الرئيسية والمقصود باتجاه الضربة الرئيسية عزل تلك القوى المعارضة التي لا تريد أو تعوق الانتصار الحاسم على العدو الرئيس وقد لعبت هذا الدور البرجوازية الليبرالية في الثورة البرجوازية الديمقراطية الروسية، إذ أنها لم تكن تريد بل كانت تعرقل اسقاط الاوتوقراطية واقامة الجمهورية. كانت تريد فقط ملكية دستورية أي انها كانت ضد انتصار الثورة الحاسم أو الكامل ومع اجهاضها. وفي مرحلة الثورة الاشتراكية اصبحت الاحزاب الانتهازية البرجوازية الصغيرة (المنشفيك والاشتراكيون الثوريون) هي المعرقل لانتصار الثورة الاشتراكية إذ كانت تريد جمهورية برجوازية.

وفي الطور الثاني من الحرب العراقية الايرانية، حرب الدفاع العادل عن الوطن بالنسبة للعراق، تلعب الدكتاتورية المعادية للديمقراطية وسياستها الارهابية دور المعرقل لتعبئة كامل طاقات الشعب المادية والروحية الضرورية لدرء خطر الاحتلال الايراني. والحال يضطلع الميل

الانعزالي السلبي في صف المعارضة بالدور المكمل للدكتاتورية في تعويق الحركة، رغم زعيقه ضدها. ومن دون فضح الميل الانعزالي السلبي عن الدفاع عن الوطن ودحره ومن دون تبني المعارضة لقضية الدفاع عن الوطن باعتبارها قضيتها هي بالذات، كما انها اليوم قضية الشعب جميعاً، فلا يمكن كشف الدور المعوق الذي تلعبه الدكتاتورية المعادية للديمقراطية في تعبئة كامل طاقات الشعب في سبيل الدفاع عن الوطن الأمر الذي بدونه لا يمكن تحقيق الانتصار على الغزاة الفاتحين وتحرير الاراضي المحتلة ولا يمكن بالتالي تهيئة وتعبئة ـ الجماهير للثورة.

إن الدفاع عن العراق يزداد صعوبة يوماً بعد يوم فالغزو الايراني يتفاقم والامدادات بالسلاح تتوارد على ايران. كما لم يسبق له مثيل منذ بدء الحرب، وتضحيات شعبنا وجيشنا الوطني تزداد كلما طالت الحرب ولا مخرج من هذا المأزق إلا بنهضة سياسية وروحية شاملة. وهذه غير ممكنة في ظل الدكتاتورية والارهاب الفاشي. ولعزل الدكتاتورية ووقف الارهاب يجب أولاً تبني المعارضة قضية الدفاع لتخرج هي نفسها من العزلة التي ضربتها على نفسها برفضها الدفاع عن الوطن، وهذا لن يتحقق من دون دحض الميول الانعزالية في صف المعارضة ايديولوجيا وسياسياً وعزل العناصر المتشبثة بها بعناد. وقد كرس هذا الكتاب لتشخيص هذه الميول في حركتنا اليوم وكشفها بيد أن هذه المهمة الايديولوجية والسياسية، عزل القوى المعوقة للمسيرة الثورية، هي اصعب المهمات الاستراتيجية كافة وأكثرها حساسية لانها قضية نضال داخلي، داخل المعسكر الوطني وحتى داخل الطليعة ذاتها وتفتقر إلى اوسع جهد جماعي مثابر.

إن الأولوية في هذا النضال الداخلي هي لدحر الميل الانعزالي إذ من دونه لا يمكن عزل الدكتاتورية والارهاب ودحرها ومن دونه لا يمكن

حتى الحديث عن زعامة الطبقة العاملة لا في الحرب الوطنية التحررية ولا في الثورة.

إن أكبر مشجع لنا في النضال الصعب ضد الانعزالية النقد والنقد الذاتي الشيوعي الذي مارسه المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي علانية وببالغ الصراحة والجرأة. وقبله بنحو ثلاثة اشهر انعقد المؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي وكان من بين انجازاته وثيقة لتقييم سياسة التحالف مع حزب البعث وقد جاء فيها نقد ذاتي جريء للاخطاء التي شخصت على انها أخطاء ذات طابع يميني. علماً أن الشيء الرئيس في فترة التحالف ١٩٦٨ - ١٩٧٨ كان انجاز حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية. وكان الظرف المساعد على وقوع اخطاء ذات طابع يميني هو التحالف بالذات مع البرجوازية الوطنية بما فيها البرجوازية الصغيرة كما أن التحالف مع الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية كذلك ظرف ملائم للوقوع في الاخطاء اليمينية وكان ديمتروف قد نبه إليه منذ ١٩٣٥. ولكن كما يقول الروس من يخاف الذئاب عليه أن لا يتوغل في الغاب.

ومنذ انهاء التحالف نهاية كارثية على يد البعث في ١٩٧٨، وحتى اليوم جرت مياه غزيرة تحت القناطر كما يقال احياناً. فإن احداثاً جساماً ذات أهمية تاريخية دولية قد وقعت ولا تزال تجري ولا سيما الحرب العراقية الايرانية التي تتفاقم يوماً بعد يوم. وتبعاً لذلك أيضاً تغيرت ظروف النضال بالنسبة للشيوعيين تغييراً جذرياً ودرامياً فمن التحالف مع الحكومة إلى الاحتراب معها ومن ظروف السلام إلى ظروف الحرب، ومن العمل بين الجماهير في ظروف شبه شرعية إلى السرية المطلقة بلا ارتباط بالشرعية أو بالجماهير في الغالب الاعم وكذلك كان شأن قوى المعارضة

الاخرى، من قبل ومن بعد. وفي الظروف الجديدة ترعرع الميل الانعزالي كما تنمو الادغال إذ وجد تربته ومناخه الملائمين وبغياب المكافحة يعني انعدام النضال الفكري ضد التحريفية والدوغمائية، وبسبب البعد عن الجماهير أيضاً. وبالمقابل انحسر الميل اليميني وغيرت كثرة من عناصره مواقعها ومالت إلى «اليسار» وانضوت تحت جناحه وغدا الميل الانعزالي «اليساري» هو الخطر الرئيس في الحركة.

ونوقشت وثيقة تقويم التحالف بين الحزبين الشيوعي والبعث بعد سبع سنوات من انهيار التحالف ذاته ـ وانشدّ المناضلون ضد الميل اليميني بعد عدة سنوات من الايغال في الانعزالية «اليسارية» التي لم ترد أي كلمة تشير إلى خطرها من قريب أو بعيد في وثائق المؤتمر الوطني الرابع المنشورة.

ويعطي موقف المعارضة الانعزالي السلبي من الدفاع عن الوطن وممارستها الكفاح المسلح الهجومي ضد الجيش العراقي المدافع عن الوطن، يعطي الدكتاتورية ذريعة بيدها لتحريم مجرد الانتماء إلى احزاب المعارضة تحت طائلة عقوبة الاعدام فيخلو الجو للدكتاتورية وتعزل المعارضة.

إن الماركسية اللينينية تعلمنا أن «المعيار الرئيس لاختيار اشكال النضال هذه أو تلك هو الحفاظ على اتصال دائم بالجماهير وقيادتها» (١٣ ـ ص ٢٤).

إن انعزال الطليعة عن الطبقة العاملة وعن سائر الجماهير يؤدي إلى ظهور الذيلية في السياسة بصورة جديدة ففي البيئة البعيدة عن جمهرة الشعب الكبرى وحيث تسود اوضاع متخلفة اجتماعياً وقوى متخلفة تغدو الطليعة المنفصلة عن طبقتها ذنبا بائساً للنفوذ القومي البرجوازي المنعزل

هو بدوره عن الجماهير، والذي يغدو هو بدوره أيضاً ذنبا للعدو. إذ يستحيل اشغال موقف وسط في الصراع التناحرى الطاغي بين قوتين رئيسيتين احداهما معتدية والاخرى ضحية للعدوان فإما التحالف مع الضحية أو الوقوع تحت رحمة المعتدي أي تحت قيادته، أو على الاقل التزام موقف الحياد الايجابي لصالحه. والادعاء بالاستقلال في موقف كهذا محض كلام فارغ. وشكل الكفاح المسلح أو غير المسلح ليس هو بحد ذاته العامل المقرر لجوهر النضال الثوري أو الاصلاحي فلرب كفاح مسلح لا يخدم موضوعياً إلا العدو الالد، ومن هذا القبيل الكفاح المسلح المشترك بين الثوار الاكراد والقوات الايرانية الغازية ضد الجيش العراقي.

إن الانعزالية تحرم الطبقة العاملة من قيادتها السياسية المجربة وبذلك تحرم بالتالي ثورة الشعب من شرط رئيس لانتصارها. وهكذا تحت شعار الكفاح المسلح لاسقاط الدكتاتورية أولا وقبل كل شيء أي قبل تحقيق السلام العادل أو الاثنين معاً ورفض الدفاع عن الوطن تساهم الانعزالية بقسطها في تكريس الدكتاتورية وتلتقي معها في افساد وعي الطبقة العاملة.

وهكذا فان الخطر الرئيس في هذه الفترة هو الميل الانعزالي « اليساري » فان الميل اليميني لم يعد الخطر الرئيس في هذه المدة وليس لديه خط سياسي بديل محدد ومعروف يطرحه ويكتفي حالياً برفض شرعية المؤتمر الوطني الرابع واعماله وموقفه غامض مضطرب من شعار الدفاع عن الوطن إذ لا يرى انه الحلقة المركزية ويقع تحت وهم الاثنين معاً أي النضال لانهاء الحرب واسقاط الدكتاتورية معاً وبنفس المستوى. والحال أن الميل الانعزالي « اليساري » قد خرج فعلاً عن قرارات المؤتمر

الرابع وفي مقدمتها اعطاء الاولوية لانهاء الحرب بصلح عادل على حساب إسقاط الدكتاتورية ومسخه اياه إلى رفض الدفاع عن الوطن وفتح الجبهة امام المعتدين بدعوة الجنود إلى تركها ورفض التدريب العسكري.

وبينما يطلق العنان للانعزالية على المستوى النظري والتثقيفي والتحريكي والعسكري ـ وبمختلف الوسائط لا يسمع صوت لاي نضال فكري مضاد للانعزالية، وفي جو كهذا تترعرع بطبيعة الحال البلبلة والتشوش وروح التكتل وتنشط جميع القوى المعادية للطبقة العاملة لتفتيت طليعتها وينشط الميل اليميني من جهته ليشيع الليبرالية والروح التكتلية وزعزعة الثقة التي لا يعيش بدونها أي تنظيم ثوري في وقت تواجه الطبقة العاملة العراقية والشعب العراقي اشد المحن، وهما في أمس الحاجة إلى الحزب الشيوعي المتماسك والمتمتع بثقة الجماهير.

والمخرج الوحيد من هذا المأزق هو النضال الفكري المبدئي والمنظم ولا سيما ضد ـ الانعزالية، الخطر الرئيس في الوقت الحاضر وفي حزبنا بالذات. وبالطبع هذا لا يعني اهمال الخطر الآخر، اليميني، فإن الميلين المنحرفين يغذي احدهما الآخر، والميل الذي نهمله سرعان ما يغدو خطراً جدياً.

وربما يتساءل المرء كيف يمكن للميول المنحرفة أن تتخندق في الاحزاب الثورية لفترات طويلة بالتناوب أو بالتعايش سوية ؟

لقد شخص فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي الاساس الذاتي والموضوعي لذلك في كراسه التاريخي القيم «حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية» وعلى الرغم من مرور ما يقرب من ٤٤ سنة على تشخيصه والتطور الاقتصادي الاجتماعي الذي شهده القطر ونمو الطبقة العاملة وتطور حركتها مما أدى بالتالي إلى وضوح التيارات الانتهازية وتبلورها

نسبياً فإن تشخيص فهد لا يزال يحتفظ بحيويته إذ قال «ولم يكن من الغريب أن تظهر انعكاسات هذه الانتهازية بالإضافة إلى الانتهازية التي تعكسها الطبقات الاخرى بسبب وضع البلاد الاقتصادي الاجتماعي وطبيعة نضالنا التحرري في حزبنا بشكل إنحرافات يمينية ويسارية عن الخطة الثورية اللينينية ولم يكن من الغريب أن تظهر بشكل عنيف جارف، وفي الوقت نفسه مبهم ومشوش، وما سبب ذلك إلا ظروفنا الذاتية والموضوعية، ظروف قطرنا السياسية والاجتماعية، هذا القطر الصغير المتأخر، والجامع في الوقت نفسه لحزمة من متناقضات الامبريالزم. وظروف طبقتنا العاملة الفتية التي لم يمض وقت طويل على خروجها من طبقة المنتجين الصغار والحرفيين وصناعهم وممن انحدروا من مراتب البرجوازية والبرجوازية الصغيرة» (١٤ - ص ٧٧).

وكما قال لينين إن الظرف الملائم للانحرافات والاخطاء وهو سياسة الحكم البرجوازي الذي يلجأ تارة إلى القمع الوحشي الذي يشجع التطرف اليساري الانعزالي أو الانتهازية اليسارية وتارة أخرى يمارس سياسة اصلاحية تشجع الميل أو الانحراف اليميني أو الاصلاحي وتارة ثالثة يتخذ السياستين معاً. كما أن الاضطهاد الفاشي يقتضي اللجوء إلى السرية الصارمة في التنظيم وغياب الديمقراطية التي تعني حق الانتخاب للهيئات القائدة بشكل طبيعي في الحزب السري ويستغل غياب الديمقراطية الاضطراري فيها من قبل القيادات البيروقراطية لقمع العلنية والحوار والمناقشة الهادفة على اساس المركزية الديمقراطية وخنق كل صوت مخالف، مما يضعف المعالجة الجذرية للميول الانتهازية ويساعد على تخندق حامليها في الحزب وظهورهم بين فترة وأخرى وبلبوس جديدة. وتبقى بعض عناصرهم تتذبذب من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار.

وتعاني الحركة منذ سنوات من الميل اليساري الانعزالي إذ تجسد بشكل صارخ في موقفها من الحرب. إن الانتهازية « اليسارية » تنطلق من نفس الجذر الطبقي والايديولوجي للانتهازية اليمينية فقد جاء في « معجم الشيوعية العلمية » « إن اليسارية » هي ظاهرياً، على طرفي نقيض مع الانتهازية اليمينية. فهي تدعو إلى أشد اساليب النضال حزماً واكثرها مغالاة في الثورية، وترفض كل الحلول الوسط وكل امكانية للتعاون مع المنظمات الاصلاحية، وتزدري بالكفاح من أجل تحقيق المطالب الجزئية للكادحين. بيد أن هذا التناقض نسبي جداً. فإن الانتهازية « اليسارية » تعكس على غرار الانتهازية اليمينية، امزجة الفئات البرجوازية الصغيرة. إذا كان الموظف النقابي الذي يمثل القمة المتبرجزة للطبقة العاملة هو الذي يقف وراء اليمين فإن « اليساريين » يحظون على حد تعبير لينين بمساندة « البرجوازي الصغيرة المسعور » والذي غالباً ما يكون قد خرج عن طوره بسبب الادقاع والويلات وغدا مستعداً للاقدام على أي عمل لمجرد الانفلات من كابوس الحياة المنغصة. والانتهازية « اليسارية » كاليمينية، تشوه النظرية الثورية. وهي تبجل الفوضوية والدوغمائية. وإن شكلي الانتهازية اليميني و « اليساري » يعرقلان تطور العملية الثورية ويدفعان الحركة العمالية إلى طريق خاطىء فالاول يدفعها نحو التوفيقية والثاني نحو المغامرات وتبرهن التجربة على انتعاش نشاط العناصر الانتهازية اليسارية يحصل عادة، في مرحلة احتدام الصراع الطبقي وتزايد المصاعب والحرمانات » (١٥ ـ ص ٧٧).

إن المعارضة العراقية تعيش منذ ١٩٨٣ مأزقاً لم تقع بمثله من قبل ولا مخرج لها منه دون اعادة نظر جدية وجذرية في سياساتها ومواقفها. وإعادة النظر الجدية هذه يجب ألا تقتصر على القيادات بل أن تشترك فيها

القواعد والجماهير أيضاً بتنظيم حوار علني مفتوح لمناقشة اهم القضايا وفي مقدمتها «الدفاع عن الوطن ضد الغزو الإيراني وإنهاء الحرب بصلح عادل دون الحاق والبديل الديمقراطي للنظام القائم..»، وإذا لم تبادر قيادات المعارضة إلى فتح بـاب النقاش الهادف البناء، فانه سيفرض نفسه تلقائياً وعشوائياً وبصورة غير منظمة وربما بعد فوات الاوان.

إن المواقف والممارسات الانعزالية الراهنة في الحركة الوطنية العراقية كما رأينا لم تأت اعتباطاً، لم تنبت كالفطر بعد زخة مطر إذ أنها ذات جذور طبقية وايديولوجية عميقة ولا يمكن معالجتها من دون نبش هذه الجذور واستئصالها. وهذه ليست عملية تنجز خلال حملة محدودة تستغرق مدة معينة. إنها بحاجة إلى عمل منظم دائب فكري بالاساس وسياسي وتنظيمي أيضاً. ويستلزم تشخيص الطابع الخاص للانحرافات والاخطاء بصراحة وجرأة بلا مواربة. ولدى بعض القيادات خوف راعب من هذا الكشف بذريعة «الحفاظ على الوحدة» والحال أن الكبت والقمع، والتلقين وحيد الجانب، هي الطريق التي تؤدي حتماً إلى نسف الوحدة المبدئية.

وأصبح معروفاً على العموم أن الانعزالية والتطرف اليساري وروح المغامرة، المنعزلة عن الجماهير الواسعة، هي من سجايا المثقف البرجوازي الصغير وهذا صحيح على العموم بيد أننا نشاهد حتى عمالاً واعين يقعون تحت نفوذ المثقفين الفكري في ظروف الانفصال الجسدي والفكري عن جمهرة طبقتهم وتظهر عليهم نفس الاعراض الغريبة المرضية.

يقول لينين في مقالـه حـول «اهميـة الذهـب اليـوم وبعـد انتصـار الاشتراكية التام»: - «... إن الخطر الاكثر وربما الخطر الوحيد، هو بالنسبة للثوري الحقيقي، استعظام الثورية ونسيان الحدود والشروط فيما يخص تطبيق الاساليب الثورية تطبيقاً ملائماً وموفقاً. ففي هذا المجال

اكثر مما في غيره، كسرّ الثوريون الحقيقيون رقابهم، حين كانوا يأخذون في كتابة كلمة «الثورة» باحرف ضخمة، في اعتبار «الثورة» شيئاً شبه الهي، في تضييع رؤوسهم، في فقدان القدرة على التفكير مع الحد الأقصى من رباطة الجأش وصفاء الذهن، على التقدير والتثبت في أية لحظة وفي أية ظروف وفي أي مجال للنشاط يجب معرفة العمل على الطريقة الثورية وفي أية لحظة وفي أية ظروف وفي أي مجال للنشاط يجب معرفة الانتقال إلى العمل الاصلاحي. إن الثوريين الحقيقيين سيهلكون (لا بمعنى الهزيمة الخارجية، بل بمعنى الفشل الداخلي تمنى به قضيتهم) في حالة واحدة فقط ـ ولكنهم لا محالة سيهلكون في هذه الحالة ـ فيما إذا فقدوا صوابهم وتصوروا أن الثورة «الكبرى، المظفرة، العالمية» تستطيع وينبغي لها بالضرورة أن تحل جميع القضايا بالسبيل الثوري أياً كانت الظروف وفي جميع ميادين النشاط (١٨ ـ ص ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

وهكذا ليس الانتهازيون وحدهم بل حتى الثوريون الحقيقيون بامكانهم أن يدفعوا قضية الثورة إلى الفشل! وهكذا فإن تحقيق الثورة لا يجري كله في السبيل الثوري وحده بل في سبيل الاصلاحي أيضاً! هكذا يقول معلم الثورة لينين. والسبيل الاصلاحي في الكثير من الاحوال في عالم اليوم يتلاءم أكثر مع القضية الكلية قضية السلام العالمي. واصبح طريق الاصلاح ممكناً بفضل نسبة القوى العالمية الراهنة، يعني التكافؤ الاستراتيجي بين النظامين العالميين: الاشتراكي والرأسمالي، اصبح ممكناً بالاعتماد على المنظومة الاشتراكية ولا سيما الاتحاد السوفيتي، شرط الاعتماد على أكثرية الشعب الساحقة، وكسب اكثرية القوات المسلحة أو على الاقل تأمين حيادها الايجابي لصالح الشعب.

إن التكافؤ الاستراتيجي بين النظامين هو على النطاق العالمي

وليس بالطبع في كل قطر على حدة. فإن نسبة القوى في البلد المعني هي التي تقرر مصير الثورة في التحليل الاخير. كما أن مجموع اسعار البضائع يعادل مجموع اقيامها والحال لا توجد إلا نادراً بضاعة تباع بسعر يعادل قيمتها بل تباع بسعر يتراوح حوالي معدل القيمة. والفرق واضح بين نسبة القوى في نيكاراغوا المجاورة للولايات المتحدة حيث تتمتع الثورة بنفوذ شعبي طاغٍ ونسبة القوى في افغانستان حيث تحظى ثورة الردة بدعم واسع نسبياً من الجماهير المتخلفة. فإذا لم يكن بامكان الثورة تحشيد تفوق ساحق بالقوى الشعبية على ثورة الردة (الثورة المضادة) فإن طريق الاصلاح لا طريق الثورة يكون الطريق الصالح للتغيير، وأن يكن تغييراً بطيئاً أكثر، واشد ايلاماً ـ وعندئذ لا يكون الثوري الحقيقي انتهازياً.

ومن العبث الحديث عن طريق الاصلاح في غياب الحرية السياسية بالطبع إذ يكون الحديث مجرد سخرية. على مثل هذه الافاق الرحبة يفتح عيوننا التفكير الجديد الذي تهب رياحه المنعشة ليس فقط على الحركة الشيوعية بل على جميع الحركات الديمقراطية والقومية التقدمية. وعلى الثوريين الحقيقيين أن يعيدوا النظر في جميع افكارهم المسبقة على ضوء هذا التفكير الجديد، بروحية متفتحة، بنفس جديد، متحررين من كل احكام مسبقة منطلقين من الافق العالمي الواسع وليس من زاوية نظر ضيقة لضفدع ينظر إلى العالم من قعر بئر عميق، بل من وجهة نظر نسر محلق.

خاتمة

النضال الايديولوجي
ضد الانعزالية والانتهازية

نشأت الحركة العمالية العفوية في العراق منذ ما يزيد عن ستين سنة. ومنذ البدء حاولت البرجوازية الليبرالية الهيمنة عليها سياسياً وايديولوجيا. وبدأت الخطوات الأولى للحركة السياسية للطبقة العاملة منذ اوائل الثلاثينات. ومنذ ذلك الوقت ولا سيما منذ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي دار النضال الايديولوجي بين الحزب الشيوعي العراقي والبرجوازية الليبرالية من أجل الاستقلال الطبقي للحزب كحزب ثوري، وطني واممي. وفي عام ١٩٤٣ تكلل النضال بقيادة مؤسس الحزب ومنظره، فهد، بانتصار الحزب على الكتل الانتهازية، انتصاراً تاريخياً ثبت وجوده وتطوره كحزب سياسي مستقل للطبقة العاملة العراقية وقد لخص فهد هذه التجربة في كتابه التاريخي (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية) وكان قد كتبه في كانون أول ١٩٤٣ ورغم مرور أكثر من ٤٣ سنة على الكتاب وما حدث من تطورات في الحركة العالمية وفي العراق فلا يزال مفعماً بالحيوية ومع أن فهد كان يناضل نضالاً حثيثاً لتحقيق التحالف في جبهة وطنية مع حزب البرجوازية الحرة (الليبرالية) واحزاب البرجوازية الصغيرة فانه لم يتوان لحظة واحدة عن النضال الايديولوجي

والسياسي ضد تأثيرها التخريبي في الحركة العمالية وفي الحزب ، كما يعكس كتابه آنف الذكر.

يشير فهد إلى التروتسكية دون أن يتوقف عندها فانصب هجومه في الكتاب على الكتل اليمينية والسمات اليمينية الانتهازية « كالاقتصادية » التي تحرف العمال عن النضال السياسي وتتركه للبرجوازية... وقد اكد فهد ضرورة البحث عن جذور الانحرافات وحذر بشدة من الانصراف عنها إلى الاشخاص « الذين جاءوا بالانحرافات وقاموا بالتخريبات » وقال: « إنها تيارات ، وإن لم تتبلور بشكلها النهائي بعد ، متصلة بحركتنا ، وإن تكن غريبة عنها ايديولوجياً ، اني لا انكر دور الاشخاص في هذه التيارات ولكنهم ليسوا مصدرها ، انهم نبتات جذورها الراسخة في تربة قطرنا » ومن هذه التيارات:

١ - « ... العمال غير الواعين طبقياً « سياسياً » ولا يهمهم في النضال سوى الحصول على زيادة بضعة فلوس على أجورهم وتحسين شروط عملهم دون النضال السياسي الشيوعي ».

« إن هؤلاء هم الاقتصاديون عندنا يسيرون وراء الافندية الذين يريدون حصر النضال الوطني السياسي بهم ، أي بطبقة البرجوازية الحرة » (٤ - ص ص ٥٦ - ٥٧).

٢ - « مراتب من العمال الماهرين ذوي الوعي الطبقي الناقص والممزوج بالانتهازية اولئك الذين يعيشون أو يريدون أن يعيشوا كما تعيش الطبقة الوسطى ويفكرون مثلها ويريدون أن يحسنوا احوالهم بنضال بروليتاري سلمي ، وهل لا يوجد عندنا عدا هؤلاء مراتب من الطبقات الاخرى ومن - المثقفين الذين يهمهم سير حركة العمال على اساس سلمي لا

ثوري ؟ فهؤلا هم الاشتراكيون الديمقراطيون الذين ترشيهم الطبقة الرأسمالية في اوربا بالمراكز الوزارية..» (١٤ـ ص ١٨).

وقد نوه فهد بأن غياب احزاب أخرى في ذلك العهد بسبب الارهاب وانعدام الديمقراطية دفع كثرة من العناصر الغريبة إلى صفوف الحزب، وكانت هذه العناصر بؤرة للانتهازية والانحرافات.

وقد تغيرت منذ أستشهاد فهد (١٩٤٨) الظروف الدولية والداخلية للانتهازية. فعلى الصعيد الدولي وإلى جانب الاشكال الجديدة من اليمينية ظهرت الموضات (اليسارية الجديدة) و (التروتسكية الجديدة) التي يستخدمها العدو الطبقي لمحاربة الشيوعية سواء من داخل احزابها أو من خارجها. وكان لا بد لها أن تجد انعكاسها في العراق أيضاً، في الظرف المناسب. تلك الكتلة التي انشقت عن الحزب في عام ١٩٦٧.

وهذا الميل (اليساري الجديد) يختلف في الظاهر عن الميل اليميني (الاقتصادي) القديم في الاربعينات في أنه لا يدعو إلى الخطة السلمية بل إلى (الثورية) بصرف النظر عن الظروف الموضوعية وحتى الشروط الذاتية وفي الحقيقة يختزل الثورة إلى مجرد كفاح مسلح، إلى عمل عسكري فني، وحتى إلى الارهاب. وقد مارست الكتلة الانشقاقية اليسارية (١٩٦٧ ـ ١٩٦٩) الارهاب الفردي فعلاً وكان أول اهدافها قادة الحزب الشيوعي العراقي ولكن التفاف النواة السليمة من الشيوعيين حول قيادة الحزب ومغامرات الكتلة الانعزالية وبطش الحكومة بها وظروف الانفراج الداخلي تضافرت كلها على تصفيتها. وقد ندمت الحكومة فيما بعد ولات ساعة مندم، على حرقها قادة الانشقاق بعرضها اياهم على شاشة التلفزيون إذ كشفوا عن حقيقتهم امام الجمهور ففقدت سلاحاً دعائياً في محاربة الحزب الشيوعي باسم «الثوروية»!..

وقد انحلت الكتلة « اليسارية » الانشقاقية وكان في مقدمة اسباب انحلالها، مغامراتها الانعزالية بيد أن تركتها الفكرية بقيت دون أن يجري كشفها ودحضها تماماً وبقيت في الحركة عناصر تحمل افكارها وان لم تشارك فيها منتظرة الظروف المناسبة لتلعب دورها عودا على بدء.

رأينا العامل النقابي « الاقتصادي » القديم والافندي الليبرالي كيف كانا حاملين الميل الانتهازي اليميني. أما حامل « اليسارية الجديدة » فهو المثقف « الشديد السخط » على الاوضاع ويبدو أن الطرفين متناقضان على خط مستقيم ولكن لينين يرى غير ذلك إذ قال في كتابه الشهير « ما العمل؟ »: لدى « الاقتصاديين » وارهابيي اليوم جذر مشترك هو بالضبط تقديس العفوية الذي تكلمنا عنه في الفصل السابق كظاهرة عامة والذي سنتناوله الآن من حث تاثيره في ميدان النشاط السياسي والنضال السياسي وقد يبدو زعمنا هـذا لأول وهلة متناقضاً، إذ أن الفرق الظاهري كبير جداً بين اناس يضعون في المقام الأول « النضال الجاري المعتاد » واناس يدعون الافراد إلى نضال يتطلب الحد الاقصى من نكران الذات. ولكن ليس ثمة هنا من تناقض « فالاقتصاديون » والارهابيون يقدسون قطبين مختلفين من التيار العفوي. « الاقتصاديون يقدسون عفوية « الحركة العمالية الصرف » والارهابيون يقدسون شديد سخط المثقفين الذين لا يعرفون أو لا يستطيعون أن يربطوا العمل الثوري بحركة العمال في كل واحد. وفي الحقيقة يصعب على من فقد ايمانه بهذه الامكانية والذي لم يؤمن بها أن يجد مخرجاً لسخطه وهمته الثورية بغير الارهاب (لينين المختارات في ١٠ م ـ م ٢ ـ ص ص ١٠٠، ١٠١).

ولا فرق هنا بين الارهاب وبين الكفاح المسلح المنفصل عن « حركة العمال » كلاهما انعزالية، كلاهما انحراف عن الخط الثوري العام، كلاهما

يحرم الطبقة العاملة من طليعتها ويسلم الحركة للعفوية.

وكما يلعب الميل القومي البرجوازي العربي دور الاحتياطي أو الرديف بالنسبة للانحراف اليميني أو الاخطاء اليمينية فان الميل القومي الكردي ضيق الافق، لعب الدور ذاته في الانعزالية والانتهازية «اليسارية» فيضيع الطابع الاممي في الانحراف اليميني وتبرز الكسموبوليتية لدى الانحراف اليساري.

وقد اعتمد اعداء الشيوعية في العقود الاخيرة إلى حد بعيد على «اليسار الجديد» ـ والتروتسكية الجديدة في تخريب الاحزاب الثورية، لان هذه الموضات أكثر استهواء للجيل الجديد غير المجرب سياسياً.

«وجاءت التروتسكية كرد فعل على المرحلة اللينينية من تطور الماركسية وعلى ولادة حزب ثوري من طراز جديد في روسيا وعكست امزجة قسم من المثقفين البرجوازيين الصغار في المدن الذين كانوا يميلون إلى الثورية الكلامية ولكنهم كانوا يتنحون جانباً عن المعارك الطبقية ويدعون إلى اعتناق وجهات نظر استسلامية في كافة المسائل الاساسية للنضال الثوري.

«وتتميز التروتسكية من الناحيتين المنهجية والعرفانية بالذاتية والإرادوية المتطرفتين والتصوير المبسط الفظ والسفسطة) (١٥ـ ص ٣٢).

«إن الاساس الايديولوجي للتروتسكية مستمد من «نظرية الثورة المستمرة» المبنية على استغلال فكرة الثورة بلا انقطاعات التي تقدم بها ماركس وانجلس والموجهة ضد النظرية اللينينية بصدد صيرورة الثورة

البرجوازية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية. ومن المميز لهذه «النظرية» عدم الثقة بمقدرة الطبقة العاملة على لف الحلفاء حول نفسها ونفي الدور الثوري للفلاحين، والسعي المغامر «لاستعجال» الثورة والقفز عبر مراحلها غير الناجزة، والتنكر للحركات الديمقراطية العامة، والاعتماد على تطوير «الحروب الثورية» ونفي امكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد.. وفي العشرينات والثلاثينات استكملت هذه النظرية بعنصر هام آخر هو العداء للسوفييت، واصبحت القاعدة لتوحيد القوى المعادية للاشتراكية من كل شاكلة وطراز.

«وفي الوقت ذاته حاول تروتسكي تقويض وحدة الحزب باعلانه لحرية التكتلات ووضعه للشبيبة في مواجهة الجيل القديم...

«وقد لوحظ في الستينات والسبعينات انتعاش التروتسكية بعض الشيء الأمر الذي يعزى إلى تطفلها على ميل قسم من الفئات غير البروليتارية، التي أخذت تنخرط في الحركة المناهضة للامبريالية، نحو الروح الثورية الكاذبة والتشدق بالتعابير اليسارية المتطرفة وكذلك سعي ايديولوجي معاداة الشيوعية لاستخدامها.

«إن كافة الكتل التروتسكية الموجودة تتهجم على سياسة التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة والتي تمارسها البلدان الاشتراكية، وعلى اية اعمال تؤدي إلى تخفيف حدة التوتر الدولي وإلى تطوير التعاون الدولي.

«وعلى الرغم من أن التروتسكية تتلاعب بالالفاظ عن الثورة العالمية، إلا انها لا تزال تنتهج كالسابق خط تشتيت القوى الثورية سواء على نطاق العالم بأسره أم في بلدان مأخوذة على حدة وذلك بذريعة أن توحيد

التيارات الثورية في العصر الراهن يلهي بزعمهم عن مهمة اسقاط الرأسمالية.

« ويفتري التروتسكيون على الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية باعلانهم عن « خمولها » و « فساد اخلاقها » وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن بعض الجماعات التروتسكية تبحث عن الطليعة الثورية في فلاحي البلدان النامية، وهي بذلك تدخل في تناقض مع نظريات التروتسكية ما قبل الحرب، بينما قبحت جماعات أخرى منها عن هذه الطليعة في الشبيبة ذات الامزجة الراديكالية اليسارية.

« وكما كان الأمر في السابق تواصل التروتسكية التشكيك بضرورة الاعمال الجماهيرية للكادحين من أجل المطالب الديمقراطية العامة، وتقف موقف العداء من الاشكال المتكونة للصراع الطبقي وتدعو إما إلى « التكامل الثوري » وذلك عن طريق الوعود « بيوم الصفر » الثوري القريب وأما إلى نزعة التمرد والمغامرة الفارغة من المعنى.

« ولوحظ في النصف الثاني من السبعينات اشتداد الجناح الاصلاحي في التروتسكية.

« والتروتسكية كوسموبوليتية. فهي تدين النهج الرامي إلى اعداد الثورة الاشتراكية بما يتناسب مع الظروف القومية والتاريخية لمختلف البلدان وتستعيض التروتسكية عملياً عن النضال ضد الامبريالية بالنضال ضد القوى الثورية الطليعية في العصر الراهن وضد الاحزاب الشيوعية وتهدف إلى تجريد البروليتاريا من اسلحتها فكرياً وتنظيمياً. وهي تفتش عن اساليب جديدة ـ للنشاط الهدام، المضاد للثورة، إذ تتسلح بتكتيك ما يسمى بالمذهب الدخولي أي التغلغل المموه المنافق في المنظمات

الديمقراطية الجماهيرية بهدف تقويضها من الداخل وتعتبر الاحزاب الشيوعية النضال ضد التروتسكية مهمة ايديولوجية هامة لها » (١٥ ـ ص ص ١٣٢ ـ ١٣٤).

وقد اقتبسنا هذه الفقرات الطويلة عن التروتسكية عن معجم الشيوعية العلمية دون أن يعني ذلك انها موجودة بصورتها المتبلورة المتكاملة في حركتنا ولكن ليتضح للقارىء أن ما جاء في هذا البحث عن اعراض التروتسكية في حركتنا وإن تكن مشوشة وغامضة، ليست وحيدة من نوعها في عالم اليوم ولا هي بنت الساعة في حركتنا فقد شاهدنا بعض اعراضها على الاقل في الكتلة الانشقاقية سنة ١٩٦٧.

وقد سبق أن شبهنا الانتهازية بالادغال في الطبيعة أي انها تنبت عفوياً عندما تتوفر لها الشروط الملائمة، أي أن الوقوع في الاخطاء والانحرافات يحصل عفوياً على العموم (باستثناء حالات الاندساس) أي بحكم العادة والتقاليد، ونمط التفكير التلقائي غير الديالكتيكي. وقد جاءت الاشارة فيما اقتبسناه اعلاه إلى منهجية التروتسكية وعرفانيتها التي تتميز « بالذاتية والإرادوية المتطرفتين جداً والتصور المبسط الفظ والسفسطة » وهذه هي منهجية وعرفانية « اليسار الجديد » عندنا أيضاً وهي ضد الديالكتيك الماركسي بالطبع الذي يتناقض مع كل المدارس الانتهازية اليمينية و « اليسارية » وضد التحريفية والجمود العقائدي.

والمقصود بالسفسطة الاستخدام الواعي لحجج صحيحة شكلاً بمعزل عن سياقها، بتطبيق القوانين الخاصة لجملة من الظواهر على جملة أخرى مختلفة عنها أو بمدة تاريخية معينة على مدة أخرى. وتلعب السفسطة دوراً رجعياً في العلم والسياسة (٣ ـ ص ٣٩٥) والاختيارية (الاكلكتيكية

Eclecticism) هي الخلط المتعهد بين الافكار المتناقضة والنظرات الفلسفية والمقدمات النظرية والتقديرات السياسَية والخ.. المختلفة والمتناقضة تماماً في كثير من الاحوال وتظهر في محاولات شتى لقرن المادية بالمثالية، في الطروحات التجريدية لقرن الماركسية بالنقدية ـ التجريبية، والمادية الديالكتيكية بالكانتية وهلم جرا. والاختيارية تطبع أيضاً بطابعها الفلسفة البرجوازية الحديثة. إن العيب المنهجي الرئيس في الاختيارية هو عجزها عن تشخيص الروابط الاساسية للشيء، أو الظاهرة في ظرفيتها (كيفيتها) التاريخية العينية من بين حاصل جميع روابط العالم الموضوعي وعلاقاته، إن عيب الاختيارية هو الجمع الآلي بين مختلف خواص الاشياء والظواهر وكيفياتها وفي الممارسة والسياسة تتسبب الاختيارية الاخطاء وسوء التقدير لانها تعرقل البحث عن الحلقة الرئيسية في سلسلة الاحداث وتحول دون تخطيط الاجراءات اللازمة لحل اشد القضايا الحاحاً في مدة تاريخية بعينها (٣ ـ ص ١١١) ولتسليح الكوادر الثورية ضد الانحرافات من الضروري دراسة الديالكتيك الماركسي للتحصن ضد الاختيارية والسفسطة. ويرى لينين أن الاختيارية اخطر سلاح انتهازي لانها تبدو شمولية أي كأنها تحيط بجميع جوانب الظاهرة.

ومن دون نضال ايديولوجي دؤوب لا هوادة فيه فستبقى الحركة العفوية الجماهيرية التي تنشأ خلال الحرب وفيما بعدها بلا قيادة واعية وتحت رحمة الدكتاتورية وسائر المغامرين البونابارتيين ويجب أن يركز النضال الايديولوجي على الانعزالية (اليسارية) باعتبارها الخطر الرئيس في الفترة الراهنة ويجب أن يكون نضالاً شاملاً وجذرياً دؤوباً وبلا هوادة. والحوار الهادف المنظم هو الطريق الوحيد إلى ذلك الآن شرط أن يكون علنياً وديمقراطياً تحت سمع الجماهير وبصرها.

المصادر

١ - الثقافة الجديدة العدد ١٧٨/١٧٧ (اصدار الحزب الشيوعي العراقي ١٩٨٦).

٢ - لينين (الحروب العادلة والحروب غير العادلة) دار التقدم موسكو ١٩٨٤.

٣ - Dictionary of philosophy «Progress Publishers Moscow. 1984.

٤ - ماركس انجلس منتخبات في ثلاث مجلدات م ١ جزء ١ (البيان الشيوعي).

٥ - ماركس انجلس - رسائل مختارة دار التقدم موسكو ١٩٨٢.

٦ - ماركس انجلس منتخبات في ثلاثة مجلدات م - ٢ ج - ١ دار التقدم موسكو ١٩٨١.

٧ - ب - غولب البلاشفة والقوات المسلحة في الثورات الروسية الثلاثة الجزء ٢ - ترجمة سعاد خيري من منشورات الثقافة الجديدة.

٨ - وثائق المؤتمر الوطني الرابع للحزب الشيوعي العراقي ١٠ - ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٥.

٩ - الحركة العمالية العالمية - قضايا التاريخ والنظرية مجلد ٢ دمشق ١٩٨٧.

١٠ ـ وثائق المؤتمر الوطني الثاني للحزب الشيوعي العراقي ايلول ١٩٧٠.
١١ ـ جريدة طريق الشعب تموز ١٩٧٩.
١٢ ـ حرب الخليج ـ دراسة للقضايا السياسية والعواقب الاقتصادية ـ تقرير خاص رقم ٢١٥ ـ اعداد كيت ماكلان وجورج جوفيه ـ لندن وحدة استخبارات الايكونوميست ـ لندن ١٩٨٥.
١٣ ـ انجلس ضد دوهرنغ ـ دار التقدم موسكو ١٩٨٤.
١٤ ـ مؤلفات الرفيق فهد من وثائق الحزب الشيوعي العراقي بغداد ١٩٧٤.
١٥ ـ معجم الشيوعية العلمية دار التقدم موسكو ١٩٨٥.
١٦ ـ لينين مختارات ـ ١٠ مجلدات ـ م ٣ دار التقدم ـ ١٩٧٩ ـ موسكو.
١٧ ـ لينين مختارات ـ ١٠ مجلدات ـ م ٦ دار التقدم ـ ١٩٧٧ ـ موسكو.
١٨ ـ لينين مختارات ـ ١٠ مجلدات ـ م ١٠ دار التقدم ـ ١٩٧٧ ـ موسكو.
١٩ ـ ماركس ـ انجلس ـ منتخبات في ثلاثة مجلدات ـ م ١ ـ ج ١ ـ ١٩٨٠ ـ دار التقدم ـ موسكو.

فهرس

